



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

٤١

كتابي



يصدره : هاني مراد

مطبوعات كتابي

اعترافات جان چاك روسو

الجزء الثالث



إصدار مجتهد

كتابي

بصدره حلمي مراد

● ● ●

كتب دورية للقصة والطاقة الرياضية ..

● مختارات كتابي : باللغة منتقاة

منجاسة لأزوع الكتب العالمية .

● مطبوعات كتابي : الترجمة

الأهمية الكاملة لشراخ الكتب العالمية.

● روايات كتابي : ترجمة

أحدث الروايات العالمية المعاصرة

● ● ●

شعبان كتابي



مصباح الفكر عند الإفريق

● ● ●

ريشة

الأستاذ / إسماعيل دهب

● ● ●

إشراف

الأستاذ / جندى مصطفى

● ● ●

المكاثبات

هيئة التحرير : حلمي مراد : ١٨ شارع العباسين - مصر الجديدة ت : ٦٧٥١٢٦ - ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ت : ٨٢٦٧٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٦، ١٠ شارع كامل صدق النجالة -

٤ شارع الإسماعيل بن مشية الكبرى بركسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ -

٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ج ٢٠٠ ع



اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الثالث

موجز ما جاء في الجزئين الأول والثاني

ولدت في (جنيف) ، في سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل في صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلاً من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف في حبه لى ، لأئنى كنت شديد الشبه بأبى .

تنبه لإحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمداً أبى إلى أسلوب خطر ، إذ أشركنى في قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكري فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت في كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجاً من عمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لتتيم في رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولتلقى العلم على يديه ويدي أخته . وكانت الأنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية في كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . . والحقتى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن أشق طريقى في المحاماة — فيما بعد — ولكنى لم استسغ هذا العمل .

قرر خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حرفة ، فالحقتى كصبى — أو تلميذ صانع — لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبرونى سناً ، فتعلمت

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

٦

السُرقة، لا سيما وأن معلّمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فأننى لم أكن أسرق حبا في المال أو الحيازة . . وإلى جانب هذا ، اشتهد شففى بالقراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلّمى ، ونفورى من خيأتى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) . . وانتهى بى المطاف إلى سيّدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية . . تلك هى « مدام دى فاران » التى أشفقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكية .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضائل مواردها . . وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى . . وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أولمّدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتير » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم . . وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسراره فى الضراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) . . وإذا بى أمّاجا بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

وأقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقاً ، أنيقاً ، مرحاً ، يستهوى النساء . وفي تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى بأولاده منها .

وانتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلاً جهدى — فى الوقت ذاته — إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحناً ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم أكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء ! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها — رغم ما كان عليه من تأجيج وقوة — لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على أننى ظفرت هناك بنبأ جعلنى أنطلق من جديد بحثاً عن السيدة دى « فاران » . وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضاً للتشرد ، والتضور جوعاً ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيراً أن « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت إليها .. وما كان أحلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على منصب فى

« المساحة » ، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لبأكورة صباى !

وأقمت فى دار « ماما » ، ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، إذ كانت موارد « ماما » فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن « ماما » كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود لآنيه » . وكان شابا لا يكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع أننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا أن وهائى للسيدة امتد إلى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل شئ !

وانصرفت إلى الموسيقى — فى تلك الاثناء — فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على أن استقيل من عملى فى « المساحة » ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى ، وإلى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتى — التى ذهبت إلى درجة الغباء — كانت تفوت على الفرص . إلى أن أجست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى أحابيلها ، فأنشفت على من مخاطر شبابى ، ورات أن تنقضى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها !

واخذت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا

٩ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

بخادمها وعشيقتها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! .. وما لبثت « آنيه » أن ماتت - وهو في ريعان شبابه - فحللت محله في تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت في نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن أجنبها هاوية الافلاس .

وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا المت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رايت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغاني .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى ، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف . وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة ويستبان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنا فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الأذنين ، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمري لن يطول ، فرايت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علاجا لعللى .

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى ،

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

١٠

حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالي عليها ، لم تتورع عن أن تكون هي البادئة بالعناق والتقبيل . وأصبحت عشيقتي خلال الرحلة . ولو أنني عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون أن يطنى السرور على ! . . . كانت تمتعني مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق . . . أما مع السيدة دي لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتي ، مزهوا بسعادتي .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا قد حل محلى أثناء غيابى . . . وكان شابا جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم استطع أن أطبق بقاء إلى جوارها ، وقررت أن أهجر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ . . . واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من أن استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للضمول والقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأبمد بما تبقى من موارد المتضائلة .

والآن . . . تعال نتابع « روسو » وهو يشق طريقه إلى قمة المجد فى المجتمع الباريسى .

ولقد كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التى استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة - بالرغم من أننى لم أكن أمتلك موارد تمكّننى من أن أستمّر فيها ثلاثة أشهر - من الصفات الغدة فى حياتى ، ومن الظواهر العجيبة فى طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشيء الذى جردنى من الجراءة على أن أظهر بين الناس .. كما أن الضرورة التى كانت تدعونى إلى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه ، حتى أننى كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرّفت إليهم . وأصبح « ماريغو » والراهب دى « مابلى » و « فونتنيل » هم الوحيدون - تقريبا - الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الأحيان . كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتى الهزلية «نارسييس» فرائت له ، وتكرّم بأن أدخل عليها بعض التنقيح ! .. وكان « ديدرو » يصفرهم كثيرا فى السن ، فقد كان يقاربنى عمرا . وكان مولعا بالموسيقى ، ملما بنظرياتهما ، ومن ثمّ ماننا كنا نتحدث عنها ، كما أنه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية ، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو أننى لم أدمع دمعا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها .. وكان هو صاحب الذنب فى ذلك !

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضطرارى إلى أن أتسول قوتى ! .. فلقد حفظت من ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها . واعتدت أن أتمشى كل صباح - فى نحوالى الساعة العاشرة - فى حدائق

١٢. اعترافات جان جان روسو - الجزء الثالث

(لوكسمبورج) ، حاملا « ميرجيل » أو « روسو » في جيبى (١) ، وأروح أردد في ذهنى — حتى موعد الغداء — أحد الأناشيد القدسية ، أو أحد أناشيد الرعاية ، دون أن يثبط من عزيمتى أننى كنت واثقا من أننى لن ألبث — إذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى — أن أنسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت أن الأسرى الاثنيين — بعد هزيمة « نيسياس » فى (سيراكيوز) — (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه ، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب !



وكانت لدى طريقة مبتكرة مكيئة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر — من الأيام التى لم أكن أذهب فيها إلى المسرح — فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك إلى السيد دى « ليجال » ، وإلى سيد يدعى « هوسون » ، وإلى « فيليدور » ، وإلى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك العهد ، دون أن أحرز مزيدا من التقدم فى اللعب . على أننى لم أكن أرتاب فى أننى لن ألبث أن أغدو فى النهاية أقوى منهم جميعا ، وكان هذا — فى رأى — كافيا

(١) يقصد ديوانى الشاعرين « ميرجيل » و « جان باتيست روسو » .

(٢) كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق الذين برزوا فى حروب البلوبونيز ، وقد هزم وهلك فى حملة صليبية فى سنة ٤١٣ قبل الميلاد .

لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوئنى فكرة طائشة جديدة ، رحمت اتدبرها بنفس الطريقة دائمةا . . . كنت اقول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شىء ، يطمئن دائما إلى أنه منشود . فلنبرز إذن ، فى أى شىء ، وإذ ذاك أغدو مرغوبا . . إن الفرص سانحة ، وعلى كفايتى يتوقف مابقى من الأمر ! » . . ولم يكن هذا التفكير الصبيانى وليد سفسطى ، وإنما كان نتاج كسلى . فقد كنت فى جزمى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت خليقة بأن ترهقنى ، أسعى إلى أن أزين كسلى لنفسى ، وإلى أن أدارى خجلى من نفسى بحجج ماثمة !

وهكذا مكثت ساكنا إلى أن انتهت نقودى . وامتقد أننى كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر « سو » لدى ، دون أى قلق ، لو لم يوقظنى الاب « كاستيل » — الذى كنت أذهب لزيارته أحيانا ، وأنا فى طريقى إلى المقهى — من سباتى . ولقد كان الاب « كاستيل » مخبولا ، ولكنه كان — برغم هذا — رجلا طيبا . وقد غاظه أن رأى أبعد وقتى وامكانياتى بهذا الشكل ، دون أن أفعل شيئا . فقال لى : « ما دام الموسيقيون ، وما د العلماء ، يابون أن يغنوا بطريقتك ، فعدل من أوتارك ، وجر النساء ، ولعلك تكون — فى هذه الناحية — أكثر توفيقا . . . لقد تحدثت منك إلى السيدة دى « بوزينفال » ، فإذهب لزيارتها ، واذكر أنك قادم من لدنى . . . إنها امرأة طيبة ، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف

(١) كانت البارونة دى بوزينفال بولندية متزوجة من فرنسى .

طلعتى فى دارها بابنتها السيدة دى « بروجلى » ، وهى امرأة زكية .. وهناك السيدة « دويان » ، وهى الأخرى بمن حدثتهن منك ، فاحمل إليها مؤلفك ، لأنها تتوق إلى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك ! .. إن المرء لا يستطيع أن يبرم عملا فى (باريس) إلا بوساطة النساء ، فهن كالمحفيات ، التى يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها .. فالفريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان أبدا ! » .

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر ، استجتمعت أخيرا شجاعتى ، وذهبت لزيارة السيدة « بوزينفال » ، فأكرمت وفادتى ، وإذ دخلت السيدة دى « بروجلى » الغرفة ، بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتى ، السيد روسو الذى حدثنا عنه الأب كاستيل ! » . فاطربت السيدة دى بروجلى مؤلفى ، وقادتنى إلى معزلها ، لترينى أنها كانت معنية به . ووجدت أن الساعة قد شارفت الواجدة ، فأردت الانصراف ، غير أن السيدة دى بوزينفال قالت لى : « أنك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداك هنا » . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح .. وبعد ربع ساعة ، أدركت أن المائدة التى دعتنى إليها كانت مائدة الخدم ! .. فقد كانت السيدة دى بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الأفق ، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندى ، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام

(١) الخط التقاربى — أو التعريبى — فى الهندسة ، هو خط مستقيم يربط المنحنى بطلايق لا نهائيا .. أى انها يتقاربان دائما دون أن يتماسا !

١٥ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

الواجب للمواهب . وقد حكمت على — فى هذه المناسبة —
بمسلكى أكثر منها بملبسى الذى كان — برغم بساطته المتناهية
— لائقا كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم ..
لا سيما وأنتى كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من
زمن طويل ، ولم أكن راغبا فى أن اتعلمها من جديد (١) ..
وقلت للسيدة دى بوزينفال — دون أن أبدى غضبى — أنتى
تذكرت أن لا بد لى من العودة إلى مسكنى لمهمة بسيطة .
فاقتربت مدام دى بروجلى من أمها ، وهبست فى أنها يبضع
كلمات كان لها تأثير سريع ، إذ نهضت مدام دى بوزينفال
لتستبقينى قائلا : « أنتى أقصد أن يكون تشريفك إيانا
بالغداء .. معنا ! » . ورأيت أن التثبث بالكرامة عمل أخرق ،
فمكثت . وإلى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دى بروجلى
قد ملك قلبى ، وجعلنى أرتاح إليها ، فكنت جد مغتبط بتناول
الغداء معها . وداخلنى الأمل فى أنها لن تندم — إذا ما عرفتنى
جيدا — على أنها أولتنى هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك
أيضا ، السيد رئيس (لاموانيون) ، وهو من أعظم أصدقاء
الأسرة ، وكان — كالسيدة دى بروجلى — يالف اللهجة
الباريسية الموجزة ، التى تتألف من كلمات صغيرة ، كلها كنايات
بسيطة رفيعة .. ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق فى
هذا المضمار ! .. وكنت من حسن الإدراك بحيث أنتى لم أشأ

(١) يعنى « روسو » أنه كان قد نسي معايشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم
ولعلنا نذكر — مما جاء فى الجزء الأول — أنه يعمل خلعة فترة من الزمن .

أن انتظر بالرغم من « منيرفا » (١) ، فأمسكت لساني ! .. ما كان أسعدنى لو أننى كنت دائماً بهذه الحكمة ؟ .. لقد كنت بهذا جديراً بالآأتردى فى الدرك الذى أجدنى اليوم فيه !

ولقد استأأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى من أن أبرر - فى نظر السيدة دى بروجلى - ما فعلته هى من أجلى . لذلك لجأت - بعد الغداء - إلى موردى المعهود . فقد كانت فى جيبى رسالة شعرية ، كتبها إلى « بريسو » أثناء مقامى فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة ، فعمدت إلى قراءتها ، واستطعت أن أحبل ثلاثتهم على البكاء . ولقد خيل إلى - سواء من غرور ، أو عن صدق فى تأويلاتى - أننى رأيت عيني السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهما لأمها : « ما رأيك يا ماما ؟ .. أنكنت على خطأ إذ قلت لك إن هذا الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك ؟ » .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب ، ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثأرت لنفسى على هذا النحو . ولقد تبادت السيدة دى بروجلى قليلا فى رأى الطبيب الذى داخلها نحوى ، معتقدة أننى لن البث أن أثير ضجة فى (باريس) ، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء . ولكى ترشدنى فى هذا المجال الذى كنت غير خبير به ، أعطتنى « مذكرات الكونت ... » ، قائلة : « أن هذا الكتاب مرشد مستحتاج إليه فى المجتمع ،

(١) مينيرفا ربة الحكاء والحرب والفنون لدى الرومان . ويشير « روسو »

بهذا التعبير إلى أنه لم يشأ أن يدمى ما كان بعيداً عن أن يسعفه فيه ذكاؤه

١٧ اعترافات جان تجاه روسو - الجزء الثالث

وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! » .
ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معتزفا
بفضل اليد التى جاءتني عن طريقها ، وإن كنت كثيرا ما أضحك
للراى الذى لاح أن هذه السيدة قد أرثاته عن مؤهلاتي للظرف
والملاطفة . . ومنذ اللحظة التى طالعت فيها هذا الكتاب ، رغبت
فى أن أخطب ود صاحبه . وقد حققت الأحداث هذه الرغبة ،
فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الادب (١) .

وجرؤت — منذ ذلك الحين — على أن اطمئن إلى أن السيدة
البارونة دى بوزينفال ، والسيدة المركيزة دى بروجلى — وقد
اهتما بأمرى — لن تدعانى طويلا بلا مصدر للعيش . ولم
أخطئ الحس ! . . فلننكم الآن عن دخولى دار السيدة
« دويان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى واجلا !



كائن السيدة « دويان » — كما هو معروف — ابنة
صمويل برنار ، والسيدة فونتين . . وكن ثلاث أخوات ، من
الممكن أن يدعين بالحسان الثلاث : السيدة ديلا توش — التى
مُرت إلى إنجلترا مع دوق كينجستون — والسيدة دارني ،
عشيقة السيد الأمير دى كوئتى ، بل — بالأحرى — صديقته ،

(١) عقب « روسو » — فى هامش مذكراته — على هذا بقوله : « هكذا
ظلت اعتقد نلويلا » وعن اقتناع واستخ ، حتى اننى مهدت اليه — منقذ
مودتى الى باريس باعترافى . اذ أن جان جاك الحفم المستريب « لم
يؤمن قط بوجود الغنى والخداع ، الا بعد أن وجد نفسه ضحية لها » .

١٨ اختراعات جان چاله روسو - الجزء الثالث

الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امرأة جديرة بأن تعبد ، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة ، بقدر ما هو لذكائها المستحب ، والمرح السذى لم يكن يفارق طباعها .. وأخيرا ، السيدة « دويان » ، أجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة هوج يعاب عليها فى مسلكها ! .. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد دويان ، إذ أن أمها منحته أياها ، مع منصب « الملتزم العام » (١) وثروة ضخمة ، عرفانا لحسن حفاوته بها فى إقليبه !

وكانت — عندما رايتها لأول مرة — لا تزال من أجمل نساء باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت فراغها عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهذلا .. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جديدا على ، فلم يحتله رأسى البائس ، واضطريت ، وارتبكت .. وموجز القول اننى شغفت هوى بهدام دويان !

ولم يلح أن اضطرأبى قد أحدث أثرا سيئا ، إذ أنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ولؤلؤه ، راحت تحدثنى عن مشروعى حديث الملة به .. وغنت ، وصاحبت غنائها بالعزف ، واستبقننى للغداء ، واجلسننى إلى جانبها حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير رأسى أكثر من هذا ، فإذا بى أقدمو مجنوننا بها ! .. وسمحت لى بأن أتردد عليها ، فاستغللت — بل أسأت استغلال — هذا السماح ، إذ أصبحت

(١) الملتزم العام : هو الموكل بتحصيل الضرائب .

أذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبا ، واتفول الغذاء هناك مرتين أو ثلاثا في الأسبوع ، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبي ، ولكنني لم أجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خجلي الطبيعي عدة أسباب . . كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم أشأ — في موقتي إذ ذاك — أن أتعرض لإغلاق هذا الباب . ثم إن السيدة دوتان كانت — برغم لطفها — رصينة وباردة ، فلم أجدر في مسلكتها شيئا مشجعا يثير جرأتى . وكانت دارها متألقة كآية دار أخرى في باريس ، في ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء لكى تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم . فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المثاقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جيلات . . وها كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وقوى الشرطة الزرقاء (١) . . ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دى روهان ، والسيدة الكونتيسة دى فوركالكييه ، والسيدة دى ميربوا ، والسيدة دى برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها . . كما أن السيد دى فونتيل ، والراهب دى سان بيير ، والراهب سالييه ، والسيد دى فورمو ، والسيد دى بيرنى ، والسيد دى بوفون ، والسيد دى غولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو أن مسلكتها المتحفظ لم يجتذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، لكننت الجماعة التى امتدادت الاجتماع فى

(١) لعب يطلق على مرثان الطيفة المقدس . على أن من المحتمل أن يكون

روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

٢٠

دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالي أكثر وقارا ! .. وما كان لجان جاك البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل هؤلاء .. لذلك فأننى لم أجسر على أن أفضى للسيدة بعواطفى ، ولكنى لم أعد أطيق صمتا ، فجرؤت على الكتابة . وقد احتفظت بالخطاب يومين ، دون أن تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم الثالث ، ردتته إلى مع بضع كلمات تأنيب ، قالتها بلهجة باردة تجهد لها دى ! .. وحاولت أن أتكلم ، ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع أملى . وبعد هذا الإعلان الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن أحدثها عن شيء من مواطنى ، ولو بنظرات عيني !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت مخطئا ! .. وكان السيد دى فرانكوى ، نجل السيد دوبان ، وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ، ويقاربنى . وكان لامع الذكاء ، مليح الهيئة ، يحسن الظهور بمظاهر العظمة . ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة دوبان ، لا لشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدماة ، ولكنها ضافية اللطف ، وعاشت معها فى وئام تام ، وكان السيد دى فرانكوى يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها ، ومن ثم فإن الموسيقى — التى كان يلم بها إلما عظيمها — كانت وسيلة

(١) أى أنه كان ثمة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ أن « دى »

قبل الاسم ، معناه أن صاحبه يحمل لقباً ، وهذا يبرر عدم حمل « فرانكوى »

لأسم دوبان !

٢١ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

ورباطا بيننا .. ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرا ، فتعلقت به .
وقد أوعز إلى — فجأة — بأن السيدة دويان أصبحت ترى أن
زياراتي أكثر مما كان ينبغي ، ورجائى أن أكف عنها ! .. ولعل
هذه الإشارة كانت في محلها ، لو أنها صدرت عند ما أعادت
السيدة الخطاب إلى . أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام — أو
عشرة — ودون أى سبب آخر ، فقد لاحظت لى غير ذات
موضوع . ومما زاد الموقف غرابة ، أن هذا لم يضعف الحفاوة —
التي كنت أقابل بها في دار السيد والسيدة دى فرانكويى — عن
ذى قبل ! على أننى خلفت من ترددى عليهما ، وكنت موشكا
أن أقطع زيارتي تماما ، لولا أن السيدة دويان — مدفوعة
بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها — سألتنى أن أعنى ، لثمانية
أيام أو عشرة ، بأبنها الذى كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق ،
وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربى الجديد .
ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب ، لم يكن ليُجعله
محتلا سوى لذة إرضاء السيدة دويان ! .. إذ كان «شينوونسو»
المسكين (١) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزي على الأسرة ،
وكان سببا في موته بعد ذلك ، في جزيرة (بوربون) . ولقد
كنت — أثناء وجودى بجواره — أحول بينه وبين أن يؤذى
نفسه أو يؤذى غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما أننى
لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحتنى السيدة دويان
نفسها في مقابل ذلك !



(١) « شينوونسو » هو اسم ابن مدام دويان .

وأولانى السيد دى فرانكوى صداقته ، فعملت معه ،
وبدأنا نلتقى سويا منهجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى
أكون على مقربة منه ، تركت نزلى - « سان كينتان » -
وانتقلت للإقامة فى « ساحة التنس » بشارع (فرديليه) ،
الذى كان يفضى إلى شارع (بلانير) ، حيث يقم السيد
دويان . وهناك ، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته ، أن وقعت
مريسة التهاب رئوى كدت أموت منه . وكثيرا ما كنت أصاب فى
شبابى ب تلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة (ذات
الجنب) ، والتهابات اللوزتين - التى كنت ضحية سهلة لها
بوجه خاص - وغيرها ، مما لا أراى بحاجة إلى تسجيله هنا ،
وكانت جميعا تدفعنى إلى حيث أرى الموت من كتب كاف لأن ألف
شكله وسنح لى الوقت - أثناء نقاهتى - للتفكير فى حالى ،
وللرثاء لجبنى ، وضعتى ، وكسلى الذى كان - برغم ما كنت
أكتوى به من نار - يتركنى أنبل فى خمول ذهنى على أبواب
المائة !

وكنيت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت
لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك ، وقد غاب عنى
اسمها . وبالرغم من أن تعنتى فى الحكم على مواهب سنواى
جعلنى دائما لا أطمئن إلى مواهبى ، فأننى لم أستطع أن أكبح
نفسى من ملاحظة أن الموسيقى كانت بأردة ، فاقدة الحرارة ،
خلوا من الابتكار والتجديد . وكنيت أجرؤ - فى بعض الأحيان
- على أن أقول لنفسى : « يخيلى إلى أن بوسعى أن أصنع خيرا
من هذا » . . . بيد أن الفكرة - الباعثة على التهييب - التى

داخلتنى من تلحين « الأوبرا » ، والأهمية التى كنت أسمع
 الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتى فى
 الحال ، وجعلتنى انضرج خجلا لجرأتى على التفكير فى ذلك . . .
 ثم ، أين لى بمن يرضى بأن يزودنى بالاقوال اللازمة لأية «أوبرا» ،
 وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواى ؟ . . . ولقد عاودتنى
 هذه الإنكار عن الموسيقى والأوبرا ، أثناء مرضى ، فرحت أبان
 هذيانى أنظم الأغانى والثنائيات والآنثيد الجماعية . . . وأوقن
 أننى نظمت قطعتين أو ثلاثا لفورى — وعفو الخاطر — ربما
 كانت جديدة بإعجاب الأساتذة ، لو أنهم سمعوها تؤدي . . .
 ولو تسنى تسجيل أحلام امرئ محبوم ، غاية أشياء جلية
 وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهذيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه ، تشغلنى
 أثناء نقاهتى ، ولكن فى توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير
 فى ذلك — بل وبالرغم من نفسى — اعتزمت أن أرضى نفسى ،
 وأن أحاول وضع « أوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة
 من أحد . ولم تكن هذه أول محاولة لى ، إذ كنت قد ألفت فى
 (شامبيرى) أوبرا ومأساة —أوبرا تراجيدى — بعنوان «إيليس
 وأنا كساريت » ، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها فى
 النار . . . كما نظمت فى (ليون) أخرى بعنوان « اكتشاف
 الدنيا الجديدة » ، لم البث بعد أن قرأتها على السيد «بوردي» :
 والراهب دى « مابللى » ، والراهب « ترويليه » وغيرهم ، أن
 انتهيت بها إلى عين المصير ، بالرغم من أننى كنت قد كتبت

٢٤٤. اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

موسيقى المطلع والفصل الأول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، أنبأني بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق بـ « بونوتشيني » (١) .

وفي هذه المرة ، اتحت لنفسي وقتا للتفكير في مشروعى ، قبل أن أمد يدي إلى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة ، في ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين . ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء ، ثم أسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) . . . وكان الفصل الأول يدور حول « تاس » (٣) ، وقد صيغت موسيقاه في أسلوب قوى . أما الفصل الثانى ، فكان عن « أوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أناكريبون » ، وقد روعى فيه أن يفوح بأنفاس الاطراء والمديح ! . . . وجريت براعتى — في البداية — في الفصل الأول ، فعكفت عليه بحماس

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الايطاليين ، كانوا ابا وابنيه ، وقد أقام أصغر الابنين رجحا في انجلترا ، وكان أكثر الثلاثة شهرة .

Les Muses Galantes (٢)

(٣) تاس : هو الشاعر الايطالى توركاتو تاسو ، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش في القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » لطابع القوة للفصل الذى نسجه حوله . أما « أوفيد » ، فكان شاعرا لاتينيا ، اشتهر اسمه بالحب والهوى ، ورغم ما قاساه في حياته من شجون ومتاعب ، حتى أنه مات منغيا . أما « أناكريبون » ، فكان شاعرا غنائيا تفوح اغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٢٥

مكننى — للمرة الأولى — من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة في
الطحين ! .. وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الأوبرا » ،
وإذا بى أجدنى نهبا للأفكار ، وإذا بها تطغى على ، فرددت
نقودى إلى جيبى ، وأسهرت إلى غرغرى واغلقتها على نفسى ،
وارتميت على السرير ، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأجول
دون تسرب ضوء النهار .. وهناك ، أسلمت نفسى تماما
للإلهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفي سبع
ساعات أو ثمان ، أبوع قسم من الفصل ! .. وبوسعى أن
أقول إن حبنى للأميرة دى « غيرارى » — إذ أننى كنت « تاس »
إذ ذاك — ومشاعرى النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم ، أتاحت
لى — الليلة واحدة — من المتسع ما كان يفوق مائة مرة ، كل
ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعى الأميرة نفسها (١) .. ولم
يبق فى رأسى — فى الصباح — سوى قسط بسيط مما نظمته
ولحنته ، ولكن هذا الجزء — الذى شوهه الاجتهاد والنعاس
تقريبا — لم يخفق فى أن يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت
كالإطلال !

وفى هذه المرة ، لم أمض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا
لأنصرافى إلى الشئون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال ،
والسيدة دى بروجلى — اللتين ظللت أزورها من وقت لآخر
— قد نسيتهما تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دويان . فقد حدث
أن عين السيد الكونت دى مونتيجى — الذى كان ضابطا فى

(١) كانت الأميرة أجمل نساء عصرها ، وقد تصوّر « روسو » أنه « تاس » ،

الذى تدله فى مواها ، وثام على مظالم أخيها !

الحرس — سفيرا في (فيينا) . وكان مدينا بسفارته إلى « بارجاك » (١) الذي كان قد ثابر على مصابحته . كما أن أخاه — الشيفالييه دي مونتيجي — كان « فارس الكم » للسيد ولي العهد (٢) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٣) ، وبالراهب « الارى » — عضو المحفل الفرنسى — الذى كنت أزوره ، في بعض الأحيان ، كذلك . وإذا علمت السيدة دي بروجلى بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتنى لديه . وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الخرص على المظهر . ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة « بيستول » (٤) كما كان على أن أتكفل بنفقات سفرى ، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق ، ونماز السيد دي فرانكويى — الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل — بمأربه، فمكثت بينها رجل السيد دي « مونتيجي » مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنها لم يكاد يبلغان (فيينا) ، حتى

(١) كان بارجاك هو الخادم الخاص للكردينال دي فلورى ، الذى كان واسع الثروة لدى الملك .

(٢) « فارس الكم » : طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدبير والبطولة ، وكانوا يتولون رعاية الامراء الفرنسيين حتى يتقوا تعلمهم .

(٣) السيدة دي بوزينفيل وابنتها .

(٤) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ فقط .

٢٧ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

اختلفا واشتجرا . وإذا رأى « غولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدعى دى « بينى » ، كان كاتباً تحت إرشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب . ومن ثم اضطر السفر إلى أن يلجأ إلى مرة أخرى . وقد أنهنى أخوه « الشيفالييه » — الذى كان موفور الذكاء — أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا افلح فى أن يغربنى بقبول الألف فرنك (١) . . كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتى . . فبادرت إلى السفر !

من سنة ١٧٤٣ إلى سنة ١٧٤٤

وعند (ليون) ، تمنيت أن اتخذ طريق (مون سيني) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة عابرة . بيد أننى انحدرت مع نهر (الرون) ، ثم انتقلت بالبحر إلى (طولون) . وكان ذلك بسبب الحرب ، ويداعى الاقتصاد ، وللحصول — كذلك — على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الإقليم إذ ذاك ، والذى كنت موفدا إليه بتوصية . وإذا لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى أن يستغنى عنى ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلاً سفرى . ولكن حادثاً هائلاً . .

كان الطامون يتفشى إذ ذاك فى (مسينا) . وكان الأسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقد

(١) يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوى .

عرضنا ذلك عند وصولنا إلى (جنوا) — بعد رحلة طويلة شاقة — إلى أن نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيار بين البقاء على سطح المركب ، أو في المعزل الصحى ، الذى انذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم إلا الجدران الأربعة ، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيره . واختار الجميع البقاء فى السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتنى أفضل المعزل . فاعتقدت إلى مبنى كبير ذى طابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أعر فيه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعد . . بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لأجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرتد عليها . . وأحضروا إلى معطى ، والحقيبة الصغيرة التى تضم ثياب النوم ، وحقيبتى الكبيرتين ، ثم أغلقت دونى أبواب ضخمة ، ذات أقفال هائلة . . وبقيت هناك ، حرا فى أن أتجول وفق هوائى ، من حجرة إلى أخرى ، ومن طابق إلى آخر ، دون أن التتى فى كل مكان بغير العزلة والتجرد من الأثاث !

ولم يحملنى كل هذا على أن أندم لاختيارى المعزل دون المركب ، بل رحمت أدبر أمورى — كما لو كنت « روبنسن » (١) جديدا — للأيام الثمانية والعشرين ، وكاننى كنت مقبلا على الإقامة طيلة العمر ، وكنت أتسلى — فى البداية — باصطياد القمل الذى التقطته على المركب . فلما أصبحت نظيفاً فى

(١) يقصد « روبنسن كروزو »

اعترافات جان جاله دوسو - الجزء الثالث ٢٩

النهاية ، بفضل تغير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت إلى تأنيث الحجرة التي اخترتها ، فصنعت حشية بديعة من ستراتي وأقمصتي ، وملاعات من عدة مناشف خطت بعضها إلى بعض ، وغطاء من إزارى المنزلى (الروب دى شامبر) ، ووسادة من معطفى الذى لففته ، واتخذت مقعدا من إحدى حقيبتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين ، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، وأخرجت ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثنى عشر كتابا كنت امتلكها ، لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيات مقامى نهيئا طيبا حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى أنعم باقامة تعدل اقامتى فى مسكنى بساحة التنس فى شارع (ديلا غيرديليه) ، فيما عدا الستائر والنوافذ ! . . . وكانت وجباتى تقدم فى كثير من مظاهر الإبهة ، إذ كان يرافقتها جنديان شهرا حربتيهما فى طرفى بندقيتيهما . وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتى ، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، لماذا ما أعد الغداء ، دق النخين احضروه ناقوسا — أثناء انسحابهم — لتنبهى إلى أنه قد آن لى أن اجلس إلى المائدة .

وعندما كنت انصرف عن القراءة أو الكتابة ، أو استكمال تأنيث حجرتى — بين الوجبات — كنت أتمشى فى مشبرة البروتستانت ، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، أو أصعد إلى برج يطل على الميناء ، حيث يتسنى لى رؤية السفن فى دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما، وكنت قمينا بأن أقضى الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر



وانخلت مقعدا من احدى حقيبتى بعد أن وضعتها على احد جانبيها
المرضىين ومنسدة من الحقيرة الأخرى .

٣٨١. اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

لحظة ، لولا السيد دى « جونففى » — المبعوث الفرنسى — الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل ، ومعتبرا ، وشبه محترق . . فقد أنقص مدة احتجازى ثمانية أيام ، قضيتها فى داره ، حيث اعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجدّه فى معزلى . . وقد أبدى لى عطفًا قويا ، كما أن سكرتيره « ديبون » كان شابا طيبا ، اصطحبنى إلى بيوت عديدة — سواء فى جنوا أو فى الريف — حيث كانت التسمية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل ، التى ظللنا نرعاها ردها طويلا من الزمن . وما لبثت أن استأنفت رحيلى — راضيا مرتاحا — مخترقا سهل (لمباردى) . . وزرت (ميلان) ، و (فيرونا) ، و (بريسيا) ، و (بادوا) ، ثم وصلت فى النهاية إلى (البندقية) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نافذ الصبر !



ووجدت أكدا ساءا من الرسائل — سواء من البلاط الملكى أو من السفراء الآخرين — لم يكن فى وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة ، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك . ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رأيت فى حياتى شفرة حكومية ، فقد خشيت — فى البداية — أن أرتبك ، ولكننى تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك . . وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، إذ أنها لم تكن — فى الواقع — تسحق عناء . فقد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فضلا عن أن مثل هذا الرجل — السيد دى مونتيجى — لم يكن ممن يعهد

إليهم بأية مفاوضات . ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت ،
فما كان ليعرف كيف يملئ رسائله ، ولا كيف يكتب بخط
مقروء . ومن ثم فأتى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك ،
فأحسن معاملتي . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد
تولّى أعمال السفارة — بعد رحيل سلفه السيد دي فرولاي ،
الذى اختبل عقله — القنصل الفرنسى ، الذى كان يدعى السيد
لويلون ، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي مونتيجي
رئيسا يديره على نظام العمل . ولقد جنح السيد دي مونتيجي
— في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله ، برغم أنه كان عاجزا
عن أدائه بنفسه — إلى تكراهية القنصل ، فما أن قدر لى أن
أصل ، حتى جرّده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها إلى .
ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة » ،
فقد دعائى إلى أن أحمل هذا اللقب . وما أوفد — طيلة بقائى
معه — أحدا سواى بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى
مندوبيه (١) . والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفضل أن يكون
في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، عن أن يكل هذا
المنصب إلى القنصل أو موظف كتابى معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزى جد ملائم ، ومنع أفراد

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية — في ذلك الحين — أن
يتحدث مع سفراء الدول الأجنبية ، عن طريق مندوبين يوفدهم إليهم ،
وتجولون يوفدهم السفراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ — في بعض نظم
الحكم — ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان في البندقية .

بطانته ، الذين كانوا من الإيطاليين — كما كان أتباعه ومعظم خدمه — من أن ينازعوني الأولوية في داره . وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان ، في صون حقوقه الديبلوماسية ، وأعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتي كان موظفوه — من أبناء البندقية — لا يحفلون بمقاومتها . ومن ثم فأننى لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر ، بالرغم من أننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتي إياه ! . . بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التي يطلق عليها اسم « أعمال الديوان » . ومع أن الحرب كانت قائمة ، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، « سيكان » (١) للسكرتير الذي ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء . بيد أننى وجدت هذا الإجراء غير عادل ، ومع أننى لم أكن فرنسيا ، فأننى ألفيته بالنسبة للفرنسيين ، وإن رحت أتقاضى حتى — في غير ما تساهل — من كل من عداهم . فلما أرسل لى المركيز سكوتى — شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة اسبانيا — يطلب يوما جوازا ، دون أن يرسل لى السيكان : فطالبت به ، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالى المفطور على الانتقام . ومفد أن أصبح هذا الإصلاح الذى أدخلته على رسوم

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٦ و ١٢ فرنكا .

الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلي الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون — في رطانة محتملة — أن هذا من إقليم (بروفانس) ، والآخر من (بيكار) ، والثالث من (بيرجندي) . ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا ، فانتفى لم أكن أخدع قط ، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبني « سيكاني » ، أو أن غرنسيا واحدا دفعه لى . وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دى مونتيجى — الذى لم يكن يعلم شيئا عن أى شيء ! — بما فعلت . فإذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح أذنيه ، وبدون أن يبدي لى ربا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين ، طلب أن أسوى معه الحساب بشأن الآخرين ، وأعدا إياى بهنافع فى مقابل ذلك ! .. ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعته أكثر منى عن تأثر من أجل بصلحتى ، والح على ، فإذا بغضبى يحتسدم ، وقلت فى تحبس شديد : « لا ياسيدى .. أن لسعادتك أن تحتفظ بها هو حق لك ، ودع لى ما هو حقى ، فلن أنزل عن « سو » واحد منه ! » . وإذ رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة ، عمد إلى وسيلة أخرى ، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه ، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان . ولم أشأ أن أجادل فى هذا الأمر ، ومن ذلك الحين أخذت ابتاع من مالى المداد ، والورق ، وشمع الأختام ، وشمع الإضاءة ، والاشربة ، وما إلى ذلك .. حتى خاتم الدولة الذى أصلحته ، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا ! .. ولم يحل هذا دون أن أعين جزءا صغيرا من أيراد

٣٥ اعرفات جان جاله روسو - الجزء الثالث

عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان شـابا طيبا .
والذى كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئا من هذا القليل . وإذا
كان قد تـلفـف نحوى ، فـانـنى لم أكن أقل كرما نحوه ، ومن ثم
فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .



ولقد وجدت عملى — إذ مارسته — أقل إرهاقا مما توقعت
بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن
يفوقه فى شيء ، بل إنه كان بجهله وعنده يعرقل — وكأنها كان
يسر بهذه العرقلة — كل ما كان يلهنيه الإدراك السليم وبعض
أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك ! .. وكان أكثر أعماله
انطواء على إدراكى ، هو ارتباطه بالمركز دى « مارى » ، سفير
أسبانيا ، الذى كان بارعا ، أرييا ، وكان بوسعه أن يقوده من
أنفه إلى حيث شاء ، لولا أنه — نظرا لارتباط مصالح التاجين —
كان يحضه عادة خير النصح ، فكان الآخر يضيع نفع هذا
النصح ، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند
التنفيذ ! .. وكان الشيء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو
اغراء البندقيين بالتزام الحياد . وكان هؤلاء لا يكونون عن ادعاء
الأمانة فى صون الحياد ، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمسيين
— علانية — بالذخائر ، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم
هاربون من قواتهم .. أما السيد دى مونتجى — الذى أعتقد
أنه كان يبنى إرضاء الجمهورية^(١) — فلم يكن يتوانى ، بالرغم

(١) حكومة جمهورية البندعية .

من بياناتي عن أن يحملني على أن أؤكد في كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقاً . وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرانني إلى أن أكتب وأرتكب — في كل لحظة — سخافات كنت مجبراً على أن أكون الوسيط فيها ، ما دامت هذه رغبته ، ولكنها كانت — في بعض الأحيان — تجعل أداء واجباتي أمراً لا يطاق . . بل أمراً غير ميسور عملياً . . مثال ذلك : أنه كان يصر إصراراً مطلقاً على أن يكون الشرط الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوباً بالشفرة ، برغم أن أياً من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيلة لازمة . . . ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة — الذي كانت رسائل البلاط تصل فيه — ويوم السبت — الذي كانت رسائلنا تصدر فيه — لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التي كان على أن أعدها ليحملها البريد في اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطة بدیعة ، تلك هي أن أعد — في يوم الخميس — ردود الرسائل التي يكون مقدراً لها أن تصل في اليوم التالي . . . ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة — بالرغم مما وسعني أن أقوله عن استحالة ، بل وسخف ، تنفيذها — حتى إنه حتم اتباعها ، فلم أكن أخفق قط ، طيلة المدة التي مكثتها معه بعد ذلك — في أن أحمل إليه في صباح يوم الخميس ، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التي كان يلقيها في مناسبات عابرة خلال الأسبوع ، والتي كنت أسجلها في مفكرتي ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التي كنت التقطها من هنا ومن هناك ، لاتزود بها في هذه المهمة العجيبة ! . . أقول إنني لم أخفق قط

في أن أقدم إليه في صباح يوم الخميس مسودة الرسائل التي ينبغي تصديرها في يوم السبت ، فيما عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها في عجلة ، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة ، والتي كانت رسائلنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة أخرى ، غاية في الطرافة ، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها : تلك هي إرسال كل نبا إلى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادي . . فكان يرسل الأنباء الواردة عن البلاط إلى السيد اميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس إلى السيد دى موريبا ، وتلك المتعلقة بالسويد إلى السيد دافرينكور ، وتلك الخاصة ببيترسبورج إلى السيد ديلاشيتاردى . . بل أنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الواردة منه هو بالذات ، والتي كنت أجري تعديلات طفيفة عليها . . ولما كان قد اعتاد أن يلقي نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها — دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه — فإنه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها ، مما جعلنى أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجى ، أو — على الأقل — على أن أبدل من الأنباء ، فلا أوجه لكل منهم عين الأنباء التى سبق أن أرسلها ! . . بيد أنه كان من المستحيل على أن أصوغ الرسائل الهامة في أسلوب معقول ، بل اننى كنت أعتبر نفسى سعيدا ، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجبة من وحى

(١) كان السيد اميلو وزيرا للخارجية ، وكان البلاط هو مقر منصبه .

أفكاره . فقد كان هذا يضطرنى إلى العودة إلى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجسيمة . . السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها — بسرعة — بالشفرة ، إذ أنه لم يكن يوقع الرسالة بدونها ! . . ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة — مراعاة لسمعته — بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت أدرك أن ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت أدعه يهذى على مسئوليته ، فأنعا بأن أنصاحه برأى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !



وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة وجدد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقينته فى النهاية . . كان قد حان لى أكون — ولو لمرة واحدة — كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بقطرة طيبة ، وكما أهلتنى التربية التى تلقيتها على أيدى أفضل النساء وتلك التى أتحتها لنفسى . . وهذا ما حدث فعلا ! . فقد كنت وحيدا مجهلا أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد أجنبى ، وفى خدمة أمة أجنبية ، وفى وسط ظلة من الأثقال الذين كانوا يستحثوننى على أن أحذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم . . على أننى بدلا من أن أفعل أى شئ من هذا القبيل ، أخلصت الخدمة لفرنسا — التى لم أكن مدينا إليها بأى واجب — وكنت أكثر إخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا إلى ، كما ينبغى أن يقال بحق ! . . وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للأنظار المتطلعة ، فقد استحققت

وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين في البندقية . ولم يشذ عن ذلك القنصل الذى خلفته — للأسف — فى المهام التى كنت أدرك أنها من حقه ، والتى جلبت على من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور !

وإذ انصاع السيد دى مونتيجى دون تحفظ للمركز دى « مارى » — الذى لم يكن ليهم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسى — أهل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون — الذين كانوا فى البندقية — أن لفرنسا سفيرا مقيما فى المدينة ، لولأى أنا ! . . ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم — كلما نشدوا حمايته — فأنهم أصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط فى معيته أو على مائدته ، التى لم يكن — فى الواقع — يدعوهم إليها إطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقى أداء ما كان ينبغى على رئيسى أن يؤديه ، وأودى للفرنسيين — الذين كانوا يلجئون إليه أو إلى أنا — كل ما كان فى طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل ، لو أننى كنت فى أى بلد آخر . . ولكنى لم أكن أمك — بحكم منصبى — أن أقابل أى شخص من ذو « النفوذ ، فكنت كثيرا ما اضطر إلى أن أجا إلى القنصل . . وكان لدى القنصل من دواعى الحذر — نظرا لاستقراره — أسرته فى البلد — ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى

(١) حكومة جمهورية البندقية .

٤ . اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

.. على أنني كنت أجسر أحيانا — عندما أراه صامتا لا يجزؤ على الكلام — على الاقدام على تصرفات خطيرة ، قدر لى التوفيق فى كثير منها . وإنى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال ذكرها تحملنى على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد ، أن رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين وأختها كايى، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا . فلقد تعاقد «فيرونيز» — أبوهما — على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية . وبعد أن تسلم ألفى فرنك لفنقات الرحلة ، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك »^(١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين — برغم أنها كانت لا تزال طفلة — كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر — الأمين الاول للديوان الملكى — إلى السفير مطالبا بالآب وابنتيه ، وأسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت كل التعليمات التى زودبنى بها ، هى : « انظر هذا الأمر ! » . فذهبت إلى السيد لوبلون ، ورجوته أن يخاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ — ويدعى ، على ما أظن ، « جستنيانى » — فيقنعه بأن يسرح فيرونيز ، الذى كان متاعدا لخدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء أداءها ، وتعلل « جستنيانى » بمختلف الحجج ، فلم يسرح فيرونيز . واغتظت .. وكنا فى « الكرنفال » ، فاستقلت زورقا وقد تقنعت ، وذهبت إلى قصر « جستنيانى » . وبهت كل من رآنى فى جندولى

(١) أضاف روسو الى هذا قوله : « لست واثقا من انه لم يكن مسرح « سان صوبيل » ، فان الاسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تماما » .

٤١ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

وأنا في ثيابي الرسمية ، إذ أن البندقية لم تر شبيبها لهذا العمل من قبل . ودخلت القصر ، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على أنني « السيدة ذات القناع » ، وما أن دخلت عليه ، حتى أزعجت قناعي ، وأعلنت اسمي ، فامتنع وجهه عضو الشيوخ ، وجهد مشدوها . وإذ ذاك قلت له في لهجة أبناء البندقية : « سيدي ، يؤسفني أن أزعم سعادتك بزيارتي ، ولكن في مسرح « سان لوك » — التابع لك — رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى . لذلك جئت أطلب به باسم صاحب الجلالة ! » . وأحدث هذا القول — على إيجازه — أثرا . فلم أكد أنصرف ، حتى هرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين ، الذين أوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز في اليوم ذاته . وكان أن أوغدت إلى هذا من اندروه بأنه إذا لم يرحل في خلال أسبوع ، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه . . ومن ثم رحل !



وفي مناسبة أخرى ، انتقلت ريان سفينة تجارية من مازق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا . وكان الريان من أبناء (مارسيليا) ، ويدعى « أوليفيه » ، وقد نسيت اسم السفينة ، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين » (١) الذين كانوا في خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة

(١) أبناء بلاد الكوريت .

وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا — سوى الربان — لم يكن يملك أن يصعد إليها أو أن يغادرها دون إذن . ولجأ الربان إلى السفير ، الذى صرفه فى جفاء ، فلجأ إلى القنصل ، ولكنه قال له إن مسأله لم تكن مسألة تجارية ، وأنه لا يملك التدخل . وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاعنى فأوضحت للسيد دى مونتيجى أن عليه أن يسمح لى بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ . ولست أنكر ما إذا كان قد أذن لى ، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة ، وإنما أنكر تهما أن المساعى التى بذلتها لم تنته إلى شئ ، وظل التحفظ قائما ، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح ، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة فى رسالة إلى السيد دى « موريا » ، وإن لقيت عناء كبيراً فى إقناع السيد دى مونتيجى بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح فى البندقية — برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء — إذ كنت أملك الدليل على ذلك ، فهتلا فى الفقرات التى اعتدت أن أجدها منقولة بالنص فى الصحيفة الرسمية . . . وهو لون من عدم الأمانة حاولت عيباً أن أحمل السفير على أن يحتج عليه . وكانت غايتى من الحديث عن هذا الحادث المكدر فى الرسالة ، هى أن أستقل فضول سلطات البندقية ، لكى أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة . . . فإن الربان كان مسوقاً إلى الانفلاس قبل أن يصدر رد البلاط عن هذه المسألة ، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد . . . بل انتنى أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين ، واصطحبت الراهب « باتيزيل » — كاتم اسرار القنصل — الذى لم يأت إلا كارها .

٤٣. اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا أن نحسد إلى سطح السفينة ، بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت في جندولي ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجها أسئلتى بصوت مرتفع . وإلى كل الملاحين تباعا ، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعي إجابات في صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه — في الواقع — أكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل أنه كاد بأى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا . . على أن هذه الخطة — المنطوية على شيء من الجراءة — كانت موفقة للغاية ، فافرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الريان أن يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا أدق كتفه ، دون أن أبدى استياء : « كابتن أوليفيه ، أظن أن رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات — وهو حق مقرر له — يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » . . ورغب الريان في أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة — على الأقل — فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الأسبانية ، المدعو « كاريو » — وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة الأسبانية في باريس ، وقائما بالأعمال فيها . . وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود ، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بأن أعذو سعيدا ، لو أئنى عرفت — إذ رحمت أفعل كل ما وسعنى من خير ، فى أتم تجرد من المصلحة

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

٤٤

الذاتية — كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا أغدو مستغفلا ، فأخدم الغير على حساب مصالحى ! .. ولكن اثفه الأخطاء فى منصب — كذاك الذى كنت أشغله — لا تمر دون تبعات ، ومن ثم فقد كنت أستنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى أية أخطاء مضادة لعملى .

ولقد كنت — فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظمًا إلى أقصى درجات النظام ، ودقيقًا إلى أقصى درجات الدقة . وفيما عدا بضعة أخطاء اضطررنى التعجل المفرط إلى ارتكابها فى صوغ الشفرة — وقد اشتكى منها معاونو السبب اميلو ذات مرة — لم يأخذ على السفر ، أو أى امرئ سواه ، أهمالا فى أداء أى واجب من واجباتى ، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلى .. بيد أننى كنت أغفل وأهمل فى تصرفى فى المسائل الخاصة التى كنت أخذها على عاتقى — أحيانا — فكان حب الانصاف يجعلنى أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسى ، قبل أن يفكر أى امرئ فى أن يشكو منه ! .. ولن أنكر — فى هذا المجال — سوى حادث واحد ، كان له اثر فى رحلى عن البندقية ، وقدر لى أن أشعر بآثاره — بعد ذلك — فى باريس !

ذلك أن طاهينا — وكان يدعى « روسيلو » — أحضر من فرنسا سندا قديما بمائتى فرنك ، كان أحد صناعات الشعر المستعار — من أصدقائه — قد تسلمه من نبيل بندقى يدعى « جانيتو نانى » ، فى مقابل قلنسوات من الشعر المستعار .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث ٤٥

وأحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجائى أن أحاول عمل أى شىء بصده ، بالإجراءات السليمة . وكنت أعرف — كما كان يعرف هو الآخر — أن العادة التى كانت متبعة لدى نبلاء البندقية ، هى ألا يدفعوا قط أية ديون تحملوها فى الخارج ، ما داموا قد عادوا إلى وطنهم . فإذا بذل أى سعى لقسرهم على الدفع ، أرهقوا الدائن التعس بالارجاع الطويل المتكرر ، وبالنفقات ، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعدل — فى النهاية — عن المطالبة ، أو يقبل أية تسوية ضئيلة ! . ورجوت السيد لوبلون أن يتحدث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة ، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع ثلاثة « سيكانات » . فلما حمل إليه لوبلون السند ، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار . . وفى خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت من خدمته . وقد تركت أوراق السفارة فى أتم نظام ، ولكن سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون أنه كان قد رده إلى ، وكنت أعرف أنه من النبيل بحيث لا يرقى إليه الشك ، ولكننى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند . ولما كان جانيتو قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل إيصال ، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن « جانيتو » رفض الأمرين ، إذ علم بضيايع السند . . فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة — من جيبي الخاص — كسداد للسند ، ولكنه أبى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الأمر مع الدائن الباريسى ، الذى أعطانى عنوانه . ولكن صانع الشعر

المستعار ، طالب بسنده أو بدينه كاملا ، إذ علم بها حدث .
فما الذى كنت أضن به — فى سورة غيظى — فى مقابل العنور
على هذا السند اللعين؟! .. ودفعت المائتى فرنك من مالى ،
فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضياع
الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين أنه لو
كان قد تسنى — لسوء حظه — العثور على السند ، لوجد عناء
فى انتزاع العشرة « ايكو » (١) الموعودة من صاحب السعادة
جائيتو نانئى !

ولقد جعلتنى المقدره — التى استشعرتها فى نفسى — على
اداء عملى ، مفعما بالميل إليه .. وفيما عدا صحبتى لصديقتى
« كاريو » ، وللفاضل « التوننا » — الذى لن البت أن اتحدث
عنه — وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة — التى تمثلت فى
التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح — وبعض زيارات
كنا نقوم بها سويا فى أغلب الأحيان .. فيما عدا ذلك ، كانت
واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع أن
عملى لم يكن شاقا أكثر مما ينبغي ، لا سيما ازاء العون الذى
كنت ألقاه من الراهب دى « بينى » ، إلا أن مراسلاتنا كانت
كثيرة جدا ، كما أننا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى
الشواغل ، بل كنت أقضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل
— فى كافة الأيام — كما أننى كنت أعمل ، فى أيام البريد ، إلى
منتصف الليل أحيانا . وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة
التي شرعت فى ممارستها ، والتي كنت — على ضوء البداية

(١) العشرة ايكو تعادل فى قيمتها السيكانات الثلاثة .

الناجحة — اعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد . . والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عنى لدى الجميع ، ابتداء من السفير الذى كان راضيا عن خدماتى رضاء تاما ، فلم يشك منها قط . . وما جاء كل الغضب — الذى ثار فيما بعد — إلا عن أننى حين الفيت شكاياتى لا تلقى أذنا ساهمة ، طلبت إعفائى من العمل . وكان كل سفراء الملك ووزرائه — الذين كنا على تراسل معهم — يهنئونه على كفاءه سكرتيره ، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه ، ولكنه أحدث اثرا عكسيا فى رأسه السيء التفكير . وكانت بين هذه التهاني واحدة بالذات ، تلقاها فى ظرف حرج ، فلم يغتفرها لى قط . وهى جديرة بأن اتكبد عناء شرحها .

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه ، حتى أنه فى يوم السبت ذاته — وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبا — لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وإنما كان يستحثنى باستمرار متعجلا رسائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدري ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى — عندها لا تكون هناك سوى أخبار عادية — إلى أن أصوغها فى قالب نشرات الأخبار . . أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل ، فكنيت أتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فانسان » ، القوائم بأعمال الملك فى (فيينا) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوكوفيتش ، زاحفا على (نابولى) ، والذى قام فيه الكونت دى جساب

بتقهقره الذى لا ينسى ، والذى كان أروع عمل عسكري في القرن كله ، وكان حديث أوروبا . وكان النبا الذى بلغنا ، هو ان رجلا — أرسل إلينا السيد فانتسان أوصافه — كان قد غادر (فيينا) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا — متخفيا — إلى (ابروتسى) ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب التمسويين . ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى — الذى لم يكن ليهتم بشيء — فأننى أرسلت إلى السيد المركيز « ديلوبيتال » هذا النبا الذى كان في وقته المناسب ، حتى ليحتل ان يكون آل « بوريون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الإبقاء على مملكة نابولى !

وإذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله — كما كان ينبغي — امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى أداها للقضية المشتركة فاذا الكونت دى مونتيجى — الذى كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله في هذه المسألة — يخال انه يلح لوما خلال هذه التهنئة ، فحدثنى عنها في استياء . وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دى كاستيلان — السفير الفرنسى في القسطنطينية — ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال ، وإن كان النبا أقل أهية . وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آن إلى آخر إلى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير

(١) أى « جان جاك روسو » نفسه .

(٢) « البايلى » : لقب سفير البندقية في القسطنطينية .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٤٩

الفرنسى ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعياً لذلك . وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجى لم يكن يلقي اعتباراً كافياً ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين ، لمجرد مراعاة الشكليات ! . . . وكان هذا يضطرنى — فى كثير من المرات — إلى أن أعد الرسالة فى غياب السفير . وكان السيد دى كاستيلان يكرنى — فى رده — بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونففى — فى جنوا — يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصى ، سبباً لخلافات جديدة . . .



وأعترف بأننى لم أحاول أن أتحاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسمى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة . وكان يبدو لى أن الانصاف يبيح لى — إذ أحسن الخدمة — أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها . ولست أملك أن أقول ما إذا كانت حقى فى أداء مهامى كانت — فى نظر السفير — سبباً مشروعاً للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا !

وكانت داره — التى لم يكن يحسن إدارتها إطلاقاً — مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة ، بينما كانت للإيطاليين المكانة العليا . . . وحتى فيما بين هؤلاء ، كان

٥٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

المستخدمون الصالحون الذين ألحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون في غير ما إنصاف ، وكان من هؤلاء المستشار الاول للسفير ، الذى شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دى غرولاي ، والذى كان يدعى — على ما اعتقد — الكونت « بياتى » ، أو ما يقرب من هذا الاسم . . اما المستشار الثانى — وكان السيد دى مونتيجى هو الذى اختاره بنفسه — فكان شقيا من (مانتوى) ، يدعى « دومينيك فيتالى » ، وقد عهد إليه السفير بثئون داره ، فاستطاع بالتعلق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويفقدو أثرا له ، مما اضر بمن كان قد ظل بالدار من امناء قلائل ، وبالسكرتير الذى كان على رأسهم . . وعين الرجل الشريف امينه ، تثير دائما قلق اللئام . وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهنى ، بيد أن كراهيته كانت ترجع — كذلك — إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير . ولا بد لى من أن أبدى هذا السبب ، ولكم أن تدينونى إذا كنت مخطئا !

ذلك انه كان للسفير — وفقا لتقليد راسخ منذ امد طويل — مقصورة في كل من المسارح الخمسة . وكان يعين — على مائدة الغداء ، في كل يوم — المسرح الذى يعتمزم الذهاب إليه ، فكننت أنا الذى يليه في الاختيار ، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى . وكنت آخذ — عند انصرافى — مفتاح المقصورة التى

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٥١

اخترتها . غفى ذات يوم ، لم يكن فيتالى — الذى كان يحتفظ بالمفاتيح — موجودا ، فعهدت إلى ساع كان فى خدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، أن الساعى أدلى بهذا النبا أمام الملأ . فلما كان المساء ، حاول فيتالى أن يتقدم بيضع كلمات يعتذر بها ، ولكنى لم أنصت إليه ، بل قلت له : « تعال غدا أيها السيد ، فقلها فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلقيت أنا الاهانة فيها ، وأمام الناس الذين شهدوها . . والا ، فسوف أطلب بعد غد — ومهما يكن ما يحدث — بأن يغادر أحدنا هذه السفارة ! » . وانحمت لهجتى الحاسمة ، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبدى لى احتراما بالغا ، راح يعمل على شاكلة الإيطاليين (١) ومع أنه لم يستطع أن يحمل السفر على فصلى ، إلا أنه اضطرنى إلى أن أستقيل من تلقاء نفسى !

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه . . عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، وأننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الاهانات المتعمدة ، وأننى أحب

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنبهة وما اليها من اساليب .

٥٢ اعترافات جان چالد روسو - الجزء الثالث

التواضع والوقار في المناسبات الملائمة ، وأننى لم أكن أقبل حرصا على ما ينبغي لى من تكريم ، منى على أداء ما هو واجب على منه للغير . . وهذا ما استغله ووفق بفضلته إلى مضايقتى . فقد قلب السفارة رأسا على عقب ، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت إذا خلا من امرأة ، احتاج إلى قواعد للنظام أقصى بقليل مما يحتاج إليه سواء ، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . أما هذا الرجل ، فإنه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكرا للأنذال والغاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك دارا للدعارة (٣) في (كروا دى مالت) — صليب مألطة — فكان هذان اللثيمان في وئام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما ! . . فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيها عدا غرفة السفير وحدها . . بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغي !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد الا يتناول عشاء قط ، فقد كانت تمد لنا — المستشارين وأنا — مائدة خاصة في المساء،

(١) إذ أنه خلف الكونت بياتى في منصب الأمين الأول .

(٢) في الأصل الفرنسى Maq . . .

qui tenait b . . . public (٣)

يجلس إليها الراهب دى بينى والساعة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلتقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وأدوات للمائدة أنظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، وصحاف من القصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن أتحمّل ما كان يدور فى السر ، لولا أنني حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد — بين سكرتيرى السفراء — الذى يضطر إلى أن يستأجر جنودا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقنى — إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ — سوى خديم صاحب السعادة السفير (١) . وإلى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء . وكان « دومينيك » — السبب الأوحد فى كل هذا — هو أكثرهم إيمانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، أنها كانت تهسنى أكثر مما تهس سواى . وكنت الوحيد — من موظفى الدار — الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت أرفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان — بفضل التحريض الخفى من

(١) كان المألوف أن يوافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائباً عن السفير ،

حاجب رفيع الدرجة ومستشار .

مستشاره الخبيث — يوجه إلى في كل يوم إهانة جديدة .
ولما كنت مضطرا إلى الانفاق عن سعة لكى أظهر في مستوى
أقرانى ، وفي مظهر يليق بمنصبى ، فاننى لم استطع أن أدخر
« سو » واحدا من مخصصاتى ، وكنت إذا ما طلبت من السفير
نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هذا كاف لأن
يملا جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

* * *

وانتهى هذان الشقيان (١) إلى أن عبثا برأس سيدهما
الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاداه إلى الإفلاس عن طريق
استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانوا يقنعانه بانها
تحف أثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا — فى (برينتا) —
بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت
الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل
أنواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد
عمد السيد دى مونتيجى إلى تغطية كل هذه الزخارف ، بالواح
من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى أن هذا هو
الذى كان متبعا فى الدور الباريسية ! .. ولحجة أخرى كهذه ،
كان هو السفير الوحيد — فى البندقية — الذى جرد سعاة
سفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصيين من العصي ..

(١) المستشاران الإيطاليان .

هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لجرد أننى كنت أخدمه بأمانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذى حمله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينة ، وقسوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التى جبل عليها ، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية . ولكننى لم أكّد أثبتين أن الخطة كانت مرسومة لحرمانى من الاعتبار الذى كنت أستحقّه بفضل خدماتى الصادقة ، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبى . وكان أول دليل تلقّيته على سوء نيته ، هو ذاك الذى حدث بمناسبة مأدبة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دى مودينى واسرته ، عندما حلوا بالبندقية . فقد انبأنى بأنه لن يكون لى محل فى تلك المأدبة . فأجبتّه مستاء — ولكن فى غير غضب — بأننى قد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا ، فاذا أبدى السيد الدوق دى مودينى — عند مجيئه — أننى يجب أن أغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفير) ، ومن الواجب على ، ألا انصاع لهذه الرغبة . فقال فى حدة : « ماذا ؟! . . أيطالب سكرتيرى — وهو لم يبلغ مرتبة المستشار — أن يتناول الغداء مع عاهل ، فى حين أن مستشارى لن يحضرا المأدبة ؟! » . فأجبت : « أجل يا سيدى ، فإن المنصب الذى شرفتنى سعادتك به ، يرفع مقامى — طالما كنت أشغله —

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

٥٦

إلى درجة تجعل لى الاولوية حتى على مستشاريك ، أو أولئك الذين يقال عنهم انهم مستشاروك ، ومن ثم فان لى حق الحضور فى مناسبات ليس لهم أن يحضروها . وانت لا تجهل أن التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يذكر ، تحتم على — فى اليوم الذى تحضر فيه التشريعات الرسمية — أن أتبعك فى ثياب التشرية ، وأن أحظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست أدرى كيف لا يجوز للشخص الذى يجلس فى مائدة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، أن يجلس مع السيد الدوق دى مودينى بالذات ، إلى مائدة واحدة؟! . ومع أن حجتى كانت فوق كل رد ، إلا أن السفير لم يسلم بها . غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع . إذ أن السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !

* * *

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مفتعبا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلمها على عزيزه فيتالى . وانى لو ائق من أنه لو استطاع أن يجرؤ على إيفاده — بدلا منى — إلى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد

(١) لعب كان يطلق على رئيس الدولة فى البندقية .

٥٧ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

إليه بأن يكتب إلى السيد دي موريبا تقريراً عن مسألة الريان أوليفيه ، لم يذكرني فيه البتة ، مع أنني كنت الوحيد الذي تدخل في المسألة . . بل أنه انكر على شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به — والذي أرسل إلى السيد دي موريبا نسخة منه — وعزاه إلى باتيزيل ، الذي لم ينبس ببنت شفة . فلقد أراد أن يغيظني وأن يرضى صاحب الخطوة لديه ، دون أن يستغنى عني برغم ذلك ، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لي ، بنفس السهولة التي عثر بها على خليفة للسيد دي فولو — سلفي — الذي كان قد أشاع في الخارج فكرة صحيحة عنه ! . . ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية ، نظراً لمراسلاته مع مجلس الشيوخ . . لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله ، ويدبر كل أموره ، دون تدخل منه . . سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بامانة ، والهوان الذي يجعله يروق للسيد المستشارين المدللين ! . . ومن ثم فقد أراد أن يستبقيني وأن يكبدني في آن واحد ، بأن يسكني بعيداً عن وطني وعن وطنه ، دون ما نقود تمكنني من العودة . ولعله كان جديراً بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فيتالي كان يرى آراء أخرى ، وكان يبغى حملي على الرحيل ، وقد وفق في غايته . فما أن تبينت أنني كنت أبدد جهودى ، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم ، بدلاً من أن يحمدها لي . .

وأنتنى لم يعد لى أن أطمع - طالما ظللت معه - فى غير المضايقات فى الداخل ، وعدم الانصاف فى الخارج . . وأن الأذى الذى كان يحاول أن يلحقه بى قد يفوق فى الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت فى خدمته ، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام . . ما أن تبينت كل هذا ، حتى قررت أن أستأذنه فى أن يعفنى من العمل ، مفسحا له الوقت كى يحصل لنفسه على سكرتير . على أنه ظل سادرا فى مسلكه ، دون أن يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن ، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت إلى أخيه ، مفصلا كافة البواعث ، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحى ، مضيئا إلى ذلك أنتنى لن أمكث فى منصبى على أية حال ! . . وانتظرت طويلا ، دون أن ألقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ، عندما تسلم السفير - أخيرا - رسالة من أخيه . ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة ، إذ أنتنى لم أره - برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب - فى مثل الهياج الذى رأيته فيه إذ ذاك . ويعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدرى ما يقول، فأتتهننى بأننى بعث أسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته فى لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن فى البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من أجلها . وجعله هذا الجواب يستثيط حنقا ، فهم بأن يدعو إبتاعه لكى يلقوا بى من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئى ،

ولكنى إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدورى ، فاندفعت إلى الباب ، وبعد أن دفعت المزلاج الذى يوصده من الداخل ، عدت إليه وقتلت فى لهجة رهيبة : « لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل أتباعك فى هذه المسألة ، فتكرم بتسويتها فيما بيننا ! » . وهذا تصرفى ومظهرى من سوريته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على أساريره . فلما رأيته قد تخلص من هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت - دون أن أنتظر منه جوابا - ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين اعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرته . وبدون أن أعود إلى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، فلم أجه بعد ذلك قط !



وذهبت لفورى إلى السيد لوبلون ، لأنبئه بما حدث ، فلم يبد دهشه كثيرة ، إذ كان يعرف الرجل ، وإنما استبقانى للغداء . وكان هذا الغداء - برغم التعجل فى إعداده - بهيجا ، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفر ، فقد روى القنصل حكايته على الجماعة ، وما أن ألما بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن هذا قد سوى حسابى ، ولا أعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لا تتجاوز بضع قطع من فئة « اللوى » ، فقد وجدتني

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

٦٠

في حيرة من أمر سفرى . وإذا بكل الجيوب تفتتح لى ، فأخذت
عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومثلها من السيد
دى سان سير ، الذى كنت وثير الصلة به ، وكان بلى القنصل
فى المكنانة من قلبى . ثم شكرت الباقين ، وبقيت — إلى أن قدر
لى الرحيل — مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى أثبت
للراى العام أن الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفير . ولقد
أهاج هذا أن رأتى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو
— برغم مركزه كسفير — منبوذا ، ففقد حجاه تمامها ، وأخذ
يتصرف كالمخبول . وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ
مذكرة لامتناعى . فلما أنبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت
أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل فى اليوم
التالى ، كما كنت أعزم . وقد درس تصرفى غلظى اقترارا ، كما
غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على
مذكرة السفير الرعناء ، كما أنبأتنى — عن طريق القنصل — بأن
لى أن أبقى فى البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرفات
رجل أحق ! . ومن ثم واصلت زيارتى لأصدقائى ، وذهبت
لأودع السفير الأسبائى — الذى أحسن استقبالى — والكونت
دى مينوكييتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت إليه وإذا
به يرد بخطاب من الطف الخطابات . وما لبثت أن رحلت — فى
النهاية — غير مخلف ورائى أية ديون ، برغم ضائقتى ، سوى
القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو »
كنت مدينا بها لتاجر يدعى « موراندى » ، وقد تكفل « كاريو »
بدفعها إليه ، وإن لم أردّها إليه قط ، بالرغم من أننا تقابلنا

كثيرا بعد ذلك الحين . أما القرضان اللذان تحدثت عنهما ، فقد سددهما كاملين بمجرد أن تيسر لى ذلك .

* * *

ولا يجوز أن نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هذه المدينة الشهيرة ، أو — على الأقل — عن القسط الضئيل منها، الذى قدر لى أن أنعم به أثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف أننى — فى شبابه — كنت مقلا فى السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن ، أو — على الأقل — المتع التى توصف بأنها ملذات . ولم أغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى — التى كانت كفيفة بأن تمنعنى من أى تغير — جعلت اسباب التسلية البسيطة ، التى كنت أستبجحها ، أكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب والطفها هى مصاحبة الاكفاء من الناس : السادة لوبلون ، ودى سان سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد فورلانى^(١) نسيت — لشدة أسفى — اسمه ، ولكنى لا أستطيع أن أذكر لطفه دون أن تتأثر نفسى . ولقد أوتى — دون كل من عرفت من الرجال — أقرب القلوب شبيها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز ، واسعى الذكاء والمعرفة ، مشغوفين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا — تقريبا — نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . وكان

(١) الفورلان اسم يطلق على أبناء منطقة (نريول) ، التى يقع جزء منها

— الآن — فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « فورلان » .

لعب الميسر يدور هناك أيضا ، ولكن في القليل النادر ، إذ أن ميولنا النزاجة ، ومواهبننا ، وشغفنا بالمرح ، جعلت هذه التسلية — الميسر — عقيمة ، فالمقامة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! . . وكنت قد حملت معى من باريس ، التحامل الذى خلقه الشعور القومى ضد الموسيقى الإيطالية ، ولكنى كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذى لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامه . فسرعان ما سرى إلى نفسى ذلك الشغف الذى توحىه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصدها . وإذا سمعت «الباركارول»^(١) تبينت أننى لم أسمع قبل ذلك غناء . . وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا ، حتى أننى كنت حين اضيق بالثرثرة والاكل واللعب فى المقصورات — فى الوقت الذى لم أكن أهفو فيه إلا إلى الانصات — اتسلل فى كثير من الأحيان من رفاتى ، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار . وهناك كنت أجلس وحيدا فى مقصورة مغلقة ، وأسلم نفسى للذة الاستمتاع بالأداء ، برغم طوله ، دون أن يزعجنى شيء ، حتى نهاية السهرة . وفى ذات يوم ، استسلمت للنوم — فى مسرح سان كريزوستوم — فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط فى فراشى ، ولم تقو الألحان الصاخبة ، الرائعة ، على إيقاظى ، ولكن . . من لى بمن يصف الشعور العذب الذى أحدثه فى نفسى النغم الناعم والغناء الملائكى اللذان أيقظانى ! . . وأية بقطة ، وای

(١) اغانى نوتية الجندول .

استفراق ، وأية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت أذنى وعينى فى آن واحد ! .. كانت أول فكرة وابتدأتنى هى أننى كنت فى الفردوس ! .. كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا أزال أذكرها ، والتى لن أنساها ما حييت ، تبدأ هكذا :

« استحوذت على الجميلة .. التى أثارت أعماقى » (١) .

ورغبت فى أن أحصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى .. كانت الانغام واحدة ، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا .. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السبوية التى كان يتردد بها فى رأسى ، والتى كان يؤدى بها فى الواقع عندما يقطنى !

أما الموسيقى التى تعتبر ع في رأى - أسمى من موسيقى الأوبرا ، والتى لا مثيل لها فى إيطاليا أو فى بقية العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خبرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللاتى لا موارد لهن ، واللاتى تعدهن الجمهورية بمعد ذلك ، إما للزواج ، وإما للالتحاق بالأديرة . وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . ففى يوم الأحد من كل أسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الأربع ، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (١) يشترك فيها عدد كبير من المنتشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أداؤها أكبر

٦٤ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

الموسقيين الإيطاليين .. وهى تؤدى فى المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المناير) . ويقتصر أداؤها على الفتيات اللاتى لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى أن أتصور شيئا الذى وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فإن دسامة الفن ، وعذوبة الغناء ، وجمال الأصوات ودقة الأداء .. كل ما فى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لا ينسب قطعاً إلى « جودة الأسلوب » ، ولكنى أرتاب فى أن ثمة قلباً بشرياً فى مناعة منه ! .. ولم يتخل كاريو وإيلى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنديكسانى » ، ولم تكن الوحيدتين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائماً تغص بالهواة .. بل أن ممثلى الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشيء الذى يدفعنى إلى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللاتى قد أوتين — ولابد — جمالاً يليق بهذه الأصوات ! .. ولم يكن لى من حديث إلا عن هذا الموضوع ، وقد تحدثت فيه يوماً ، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن

(١) المقطوعات المقصودة « Motets » وهى مقطوعات موسيقية غنائية

دينية ، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية .

٦٥ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

السهل إرضاء شوقك . فإنتى من المشرفين على المؤسسة ،
وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة(١) معهم ! » .

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده . وإذ دخلت القاعة التى
ضمت هؤلاء الجميلات اللائى طال شوقى إليهن ، استشعرت
رجفة عاشقة لم أعدها من قبل . وقدم السيد لوبلون إلى
هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت أسماؤهن وأصواتهن
هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. إنها بشعة
الخلقة ! .. « تعالى يا كاتينا ! » .. إنها ذات عين واحدة ..
« تعالى يا بتينا ! » .. كان الجدرى يشوه وجهها ! .. لم تكد
توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضحك القاسى
من المفاجأة العنيفة التى صادفتنى .. على أنه كانت بينهن
اثنان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل ! .. ولم يكن يتقن الغناء
إلا مجتمعات (فى كورس) ، فتولائى الأسى . وفى أثناء الوجبة
الخفيفة ، رحنا نداعبهن فإذا المرح يفيض بهن ، وإذا الدمامة
لا تخلو من بعض آيات البهاء التى تبينت وجودها فيهن .
فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، ما لم
يكن قد أوتين أرواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . وأخيرا ،
تغير رأى فيهن إلى درجة أننى انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء
الدميمات ! .. وجرؤت — فى غناء — على العودة إلى حضور
قداسهن ، وقد تبينت ما طمأننى . وقد ظللت أجد غناءهن
عذبا ، وأرى أن أصواتهن كانت تضى على وجوههن بهاء ،

(١) Gouter لا تضيقه أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء .



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللاتي كانت اسماءهن
واصواتهن هي كل ما عرفته عنهن .

١٧. اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

حتى أنني كنت أصر - ما دمت أسمع غناءهن - على أن
أصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناى !

والموسيقى - فى إيطاليا - لا تكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن
ثم فإن حرمان النفس منها - إذا كان لدى المرء ميل إليها -
لا يكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . وقد استأجرت
معزفا ، وكنت فى مقابل « ايكو » واحد ، أستقدم إلى دارى
أربعة أو خمسة من عازفى الموسيقى الغنائية ، أتدرب معهم
- مرة فى الأسبوع - على عزف القطع التى تكون قد استأثرت
بأعظم قدر من اعجابى فى « الأوبرا » . وكنت أجرب كذلك
عزف بعض الألحان الغنائية التى ضمتها « عرائس الشجر
اللطاف » (١) ولقد سألنى أستاذ الموسيقى الإيقاعية فى « سان
جان كريسوستوم » قطعتين منهما - أما لأنه أعجب بهما حقا ،
وأما لأنه أراد أن يملقنى - فسررنى أن أسمعهما تؤدىان على
أيدي فرقة الرائعة ، وأن تؤدى رقصاتهما الصغيرة « بتينا »
.. وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها أسبانى من أصدقائها
يدعى « ماجواجا » ، كثيرا ما قضينا السهرات فى داره .



أما عن النساء ، فليس لرجل أن يعرض عنهن فى مدينة
كالبنديقية ! .. وقد يقال لى : « اليس لديك ما تعترف به فى
هذا الصدد ؟ » .. بلى ، فإن لدى ما يقال فعلا ، وانى لمقدم
على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التى اتبعتها فى كل

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » قد ألها فى باريس .

اعترافتى الأخرى . . ولقد كنت دائما أنفر من البغايا ، بيد أنه لم يكن لدى سواهن فى البندقية ، إذ كان محرما على ولسوج معظم البيوت فى المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان أمرا عسيرا ، كما أن احترامى لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرد التفكير فى اشتهائهن !

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدعى الانسة دى « كاتاليو » ، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا . ولكن كاريو كان يهواها ، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها . . ولقد كان ميسور الحال ، فى حين أننى لم أكن أملك شيئا . . كان مرتبه مائة « لوى » ، أما أنا فلم أكن اتقاضى سوى مائة « بيستول » . وبغض النظر عن أننى ما كنت لاستبيح أن أسطو على صيد صديقى ، فأننى كنت أدرك أن ليس لرجل خالى الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان ، وإنما يكن . . ولو كان فى البندقية ! . . ولم أكن قد فقدت عادتى المشنومة ، وأعنى بها استبدال الحاجات التى أصبو إليها . ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لى سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التى يخلتها الجو المحيط بى ، فأننى عشت فى هذه المدينة عاما تقريبا ، وأنا محتفظ بما كان لى - فى باريس - من طهر وحكمة . . كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين ، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد أتاح لى أولاهما السيد الشريف فيتالى (١) ، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذى أجبرته على أن يقدمه لى فى أكمل صيغة رسمية . فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية ، فأخذ السادة يعتبرون على عدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطنبون فى إطراء رقة الغوانى البندقيات ، قائلين أن ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك إننى خليك بأن أتعرف إلى أبدعهن طرا ، وأنه يرجو أن يقدمنى إليها ، وأننى سأطرب لمعرفتها . وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المحرج ، فإذا بالكونت بياتى — وكان كهلا وقورا — يقول فى صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالى ، إنه يؤمن بأننى أعقل من أن أدع عدوى يقودنى إلى دار غانية. والواقع أننى لم أستشعر ميلا ، ولا تأثرت بإغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك — وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التى لم أكن أملك أن أنهما — إلى أن تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من إملاء ميولى ، وقلبى ، وعقلى ، بل وإرادتى . . كنت منساقا له لجرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، أو بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione
(٢) ولقد كانت « البادوانا » (٣) التى ذهبوا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه بل إنه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى.

(١) واضح أن « روسو » يشق من « فيتالى » إذ يصنه بأنه شريف .

(٢) عبارة ايطالية معناها : « لى لا يبدو مغرط الفباء » .

(٣) الغانية ، أو المومس .

وتركنى دومينيك في دارها ، فأرسلت في طلب بعض المثلوجات (آيس كريم) ، وسألتها أن تغنى لى ، ثم تهيات — بعد نصف ساعة — للانصراف ، تاركا على المنضدة « دوكا » (١) ، ولكنها في عزة نفس غريبة — أبت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله . . وفي غياب — لا يقل غرابة — أرضيت عزة نفسها ! . . وعدت إلى القصر وأنا موقن من أننى أصبت بمرض خبيث ، حتى أن أول ما فعلت هو أن أرسلت في طلب طبيب لأطلب منه بعض الادوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عانيته طوال ثلاثة أشهر ، دون ما علة حقيقية ، ودون ظهور أية علامة تبرره . فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضرر ! . . بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمننى ، فلم يوفق إلا إلى اقناعى بأننى كنت مخلوقا على نمط خاص ، لا يجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع أننى قد أكون أقل من أى رجل آخر تعرضا لهذا الخطر ، إلا أن عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلا على أن الطبيب كان مصيبا ! . . على أن هذا الرأى لم يجعلنى متهورا قط ، وإذ كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية ، فإن فى وسعى أن أقول أننى لم أسوء استفلالها !



أما مغامرتى الأخرى ، فمع أنها كانت مع غانية كذلك ، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى أصلها أو فى نتائجها .

(١) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ٦٠ و ١٢ فرنكا .

٧١ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفيه - الريان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة ، وأننى اصطحبت سكرتير السفارة الإسبانية . وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع ، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيتَه مستاء . والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدي لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتأكيد ، كما أننى كنت أخالنى جديرا بشيء من التمييز من الريان . ولم أستطع أن أخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما . ومع أن الغداء كان بديما ، وقد أدار أوليفيه الانخاب فى إكرام رائع ، فأننى بدأت المأدبة وأنا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد أكلت قليلا وفكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الأول ، توقعت تصنيفا على الأقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . . وضحك كاريو - الذى قرأ ما فى خاطرى - إذ رأتنى أغمغم كالطفل . وفى ثلث الغداء ، رأيت جندولا يقترب ، وإذا الريان يقول لى : « لغمرى ! . . خذ حذرك يا سيدى فهذا هو ذا العدو ! » فسألته عما كان يعنى ، وإذا ذاك أجاب بدعابة . ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، بالغة الرشاقة ، فى ثياب مغربية ، تغادره . . وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرفة . ورأيتها تستقر إلى جوارى ، قبل أن أعطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها ! . . وكانت هاتئة بقدر ما كانت رشيقة . . سمراء فى العشرين من عمرها، على الأكثر ! . . ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية ، وكانت

لهجتها وحدها كافية لأن تدبير رأسي . وفيما كانت تأكل وتتكلم ، أخذت ترمقني ، ثم تفرست في لحظة ، وما لبثت أن صاحت : « يا للمعزاء الطيبة ! .. آه ! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزي بريمون دون أن أراك ! » .. وارتمت في أحضاني ، والصقت فمها بفمي ، واحتضنتني حتى كادت تزرق أنفاسي ! .. وراحت عيناها الواسعتان السوداوان — على غرار العيون الشرقية — ترميان قلبي بشواظ من لهب . ومع أن المفاجأة أحدثت شيئا من الاضطراب في البداية ، إلا أن غريزتي الشهوية سرعان ما تملكنتني — بالرغم من الحضور — إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحي ، إذ أننى لمثلت ، أو بالأحرى جننت ! .. فلما رأنتى قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها ، خفت من عناقها ، ولكنها لم تخفف من غورة عواطفها .. حتى إذا راق لها أن تبدى لنا السبب الحقيقي أو الزائف لهذا الفزق قالت لنا اننى كنت اشبه السيد دى بريمون ، مدير جهرمك توسكاني ، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا .. وأنها كانت — ولا تزال — متهمة بهذا السيد دى بريمون ، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها .. وأنها قد اختارتني بديلا عنه ، فشاعت أن تهوانى ، لأن هذا كان يروق لها ، وأن من الواجب — للسبب ذاته ! — أن أحبها ، طالما ظل هذا يلائمها ، فإذا ما هجرتنى فجأة ، وجب أن أحتملها صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون ! .. واستولت على كما لو أننى كنت ملك يمينها ، فعهدت إلى بقاها ، ومروحتها ، وحزامها ، وقلنسوتها .. وراحت تأمرنى بأن أذهب إلى هنا أو هناك ، وأن أفعل هذا أو ذاك ، وأنا أطيعها ! .. وقالت لى

ان اذهب فاصرف جندولها ، لانها كانت راغبة فى استخدام جندولى ، فصدعت !.. وامرتنى بأن اغادر مكانى ، وأن أرجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لانها كانت تريد أن تتحدث إليه ، ففعلت !.. وتحدثنا طويلا ، فى صوت جد خفيض ، فتركتهما يفعلان .. ونادتنى ، فخففت إليهما ، فقلت لى : « أسمع يا جانيتو .. لست أريد البتة أن أكون محبوبة على الطريقة الفرنسية ، إذ ليس من ورائها طائل فى الواقع .. غنى أول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك أن تمضى عنى .. ولكن ، لا تكث بين بين .. إتنى أنذكرك ! » .

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج فى (مورانو) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها فى غير كلفة .. ولكنها كانت — فى كل مكان — توجد بها يفوق بكثير كل ما أنفقنا . وكان من الواضح — من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على أن نبعثر نقودنا — أنها لم تكن تقيم للمال وزنا .. واعتقد أنها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها ، لم تكن تصدر فى طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للأجر الذى يدفع فى مقابل المتع التى تجود بها ! وفى المساء ، ذهبنا إلى دارها . وفيها كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منضدة الزينة ، فقلت لها وأنا أتناول أحدهما : « آه ! آه !.. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد .. هل من سبيل إلى معرفة ميم تستخدم ؟ .. إتنى أعرف أن لديك أسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » .. وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا فى غرور أرعن ، زاداها فتنة : « عندما اتركهم على أولئك الذين لا أحبهم ، فائنى اتقاضاهم ثمن الضجر

٧٤ اعترافات جان چالد روسو - الجزء الثالث

الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو اعدل من هذا ! .. على اننى وإن احتملت عناقهم ، فليست أحب إطلاقا أن احتمل إهاناتهم .. ولن أخطيء إصابة أول رجل ينتقص من شأنى !» .

وعند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوغياها فيه ، فى اليوم التالى .. ولم أدمها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة » (١) .. وهو ثوب مكشوف ، أكثر من أن يوصف بأنه خليع ، غير معروف إلا فى الدول الجنوبية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ، برغم أننى أفكره تهما ! .. كل ما سأقوله هو أن كميته وفتحة عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكبرات صغيرة فى لون الورد . وقد بدا لى أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها الرائعة الجمال . وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزى كان من المستحدثات الرائجة فى (البندقية) ، وأنه كان ذا تأثير جد فائن ، حتى أننى لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا . ولم تكن لدى أدنى فكرة من الغواية التى كانت فى انتظارى .. لقد تحدثت من مدام دى « لارناج » ، وأنا فى تلك النشوات التى تنقلنى إليها ذكراها فى بعض الأحيان ، ولكن .. لشدة ما كانت عجوزا ، وحمية ، وباردة الحس ، إذا قيسست بحبيبتى « جوليتا » ! .. ولا تحاولوا أن تتصوروا مفاتن ومحاسن هذه الفتاة الساحرة ، فليسوف تظلون بعيدين كل البعد عن الحقيقة ! .. إن عذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسان الحريم أقل حيوية ، وحوريات الجنة أقل جاذبية ! .. أبدا ما حظى قلب

٧٥ - اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

وحواس إنسان فان بمثل تلك المتعة الخطوة !.. آه ! ليتنى عرفت كيف أتذوقها في أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل !.. لقد تذوقتها حقاً ، ولكن دون ما افتتان ، إذ أننى أغسدت كل الملذات .. قتلتها وأنا غير حافل ، كما ينبغي أن يقال . لا ، ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وإنما بثت في رأسى الفاسد سم هذه السعادة التى لا سبيل إلى وصفها ، والتى غرست في قلبى شهوة الشوق إليها !



وإذا كان في حياتى ظرف واحد يعبر تمام التعبير عن فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر بها — في هذه اللحظة — الغاية المنشودة من كتابى ، لتجعلنى أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فعليك أيها الراغب في معرفة دخيلة قلب إنسان — ايا كنت أنت — أن تتجلد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها جان جاك روسو معرفة تامة !

لقد كنت ألج غرمة الغفانية ، وكاننى ألج معبداً للحب والجمال .. وكنت أخال أننى أبصر القداسة في شخصها ، فما كنت لأعتقد أن بوسعى أن أحظى بالانفعالات التى ألهمتها ما لم أحترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف — خلال محاولات التقارب والتألف الأولى — نعم مفاتها وعناقها ، حتى تولانى الخوف من أن أفقد ثمارها مقدماً ، ومن ثم فقد تفتت إلى التعميل باقتطافها . وفجأة ، أحسست — بدلاً من النيران التى كانت تكوينى — ببرودة قاطلة تسرى في عروقى ، وخذلتنى ساقاى ،

فجلست وأنا أرى نفسى موشكا على الاغماء ، ورحت أبكى كالطفل !

ترى منذ الذى يستطيع أن يحدس سبب دموعى وما كان يجرى فى راسى فى هذه اللحظة ؟ .. كنت أقول لنفسى : « إن هذه الحسنة التى أجدتها فى تناولى هى أروع نتاج الطبيعة والحب .. فالروح والجسد فى أكمل آياتهما .. وإتيا لطيفة وكريمة كما أنها جميلة وبديعة .. وخلق بالعظماء والأمراء أن يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك أن تكون عتد قديمها .. ومع ذلك ، فها هى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ، فى خدمة كل إنسان .. لقد نفص أحد ربابنة السفن التجارية يديه منها ، فجات والقت بنفسها على راسى .. على أنا الذى كانت تعرف أنه لا يملك شيئا .. أنا الذى لم يكن بوسعها أن تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها ! .. أن ثمة شيئا يجل عن الإدراك ، فى هذا . فها أن قلبى يخدعنى ويزيغ حواسى ويجعلنى مطية مومس لا قيمة لها ، وإما أن ثمة عيبا خفيا لا أدريه ، يهدم مفعول مغائنها ، ويحيلها قميئة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين — لولا ذلك — بأن يتناحروا فى سبيل الظفر بها » .. وشرعت أبحث عن هذا العيب فى استغراق عجيب ، دون أن يخطر لى البتة أن للفسق والمهر نصيبا فى ذلك . فلن نضرة بشرتها ، وإشراق محياها ، وأسنانها التى كان بياضها يبهى البشر ، وحلاوة أنفاسها ، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة .. كل هذا محا هذه الفكرة تماها من ذهنى . وإذ كنت لا أزال فى شك من حالى —

منذ زيارتي لبيت البغى « البادوانا » — فقد وسوست لنفسى بالخوف من أننى لم أكن فى صحة تجعلنى أهلا لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقينى من هذا لم يكن زائفا !

ولقد أهاجتنى هذه الخواطر — التى جاءت فى حينها المناسب — إلى الدرجة التى أبكتنى . أما « جولينا » — التى كان هذا المنظر جديدا عليها ولا ريب ، فى مثل تلك الظروف — فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد أن تمشت فى أرجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عيناي أن هذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور فى شيء . ولم يكن مسيرا عليها أن تبرئنى منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكننى إذ هممت بأن انطرح متهاككا على هذا النحر الذى بدا وكأنه كان يسمح — للمرة الأولى — ليد رجل وفمه بأن يمسه ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحدة . وضربت جبهتى براحتى ، وتفرست ، فخيل إلى أننى أرى أن هذه الحلمة لم تكن على غرار الأخرى فى الشكل . وإذا بى انقب فى ذهنى عن تعليل لوجود حلمة شوهاء ، ولما رحت أقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظاهرة علاقة بعيب طبيعى واضح . . وتجلى لى — كوضح النهار — أننى لم أكن أحتضن بين ذراعى أجمل حسناء كان بوسعى أن أتصورها ، وإنما كنت أضم نوعا من المسخ . كنت أضم نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذمبت فى غبائى إلى حد أن أحدثها عن هذا العيب ، فتلقت الأمر — فى البداية — على محمل الدعابة ، وقالت فى مرحها وفعلت أشياء كانت كفيلة بأن تميتنى هياما ، ولكنها حين رأت بقية من قلق لم أقو على

إخفاؤها ، إذ بها تتخرج خجلا — فى النهاية — فتعتدل ، وتسوى ثيابها . . ثم سارت — دون أن تثبس بكلمة واحدة — فجلست لدى نافذة مخدمها . ورغبت فى أن اجلس إلى جوارها ، فمفادرت مكانها وجلست على أريكة ، ثم نهضت بعد لحظة وتمشت فى الحجرة وهى تزغر ، وقالت فى لهجة قاسية ، مهينة: « جانيتو » . . دى النساء ، وادرس العلوم الرياضية !

وقبل أن أبرحها ، سألها موعدا آخر كى القاهها فى اليوم التالى ، فأرجأته إلى اليوم الثالث ، وأردفت — وهى تبسم ابتهامة ساخرة — أننى ولا بد بحاجة إلى الاستجمام . وقضيت هذا الوقت متوكم المزاج ، ملء القلب بمفانيتها وحسنها ، شاعرا بحماقتى ، لأنى نفسى ، متحصرا على اللحظات التى أسأت استغلالها — والتى كان فى يدي ، أنا وحدى ، أن أجعلها أعذب لحظات حياتى — مترقبا بأشد الوان نفاذ الصبر اللحظات التى أستطيع فيها أن أعوض ما فائت . . ولكننى ظلمت — مع ذلك — قلما بالرغم من نفسى ، لا أدرى كيف أوفق بين مفاتن هذه الفتاة الرائعة ، وبين فحش حالها . . وهرعت ، بل طرت إلى دارها فى الموعد المحدد . ولست أدرى أكانت هذه الزيارة خليقة بأن تضاعف من إرضاء طبعها الحادة . . كان غرورها — على الأقل — تمينا بأن يجد فى الزيارة عملا يتبلقه ، ومن ثم رحت أستمع — سلفا — بغبطة ما كنت أعزمه من أن أريها ، بكل الوسائل ، أننى كنت أعرف كيف أصلح أخطائى . ولكنها أعفنتنى من هذا العناء . فان نوتى الجندول — الذى أوفدته إلى دارها ، عندها رسونا — عاد إلى بنى رحيلها فى اليوم السابق

إلى (فلورنسا) . وإذا كنت لم أشعر بمدى حبي لها عندما كانت بين ذراعى ، فقد شعرت به فى قسوة إذ فقدتها ! . ولم يفارقنى قط ندمى المهتاج . . ولقد استطعت أن اتعزى عن فقدتها — وهى التى كانت موفورة اللطف وموفورة الفتنة فى ميني — ولكنى أعترف بأننى لم أستطع البتة أن أهون على نفسى الفكرة التى راودتنى من أنها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !



هاتان هما قصتائى الوحيدتان ، فان الشهور الثمانية عشر التى قضيتها فى البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم إلا غراما لم يتجاوز أن يكون مجرد . . مشروع ! فلقد كان «كاريو» مشغوقا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما إلى دور فتيات كن على علاقات بسواه ، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة . ولما كنا لا نفترق ، فقد اقترح على مشروعا لم يكن نادر المثال فى البندقية : أن نقتنى فيما بيننا عشيقة ! . . ولقد وافقت على ذلك ، وبقي أن يجد غانية نطمئن إليها . . وبحث كثيرا ، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة ، فيها بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر ، كانت أمها الخسيسة تسعى لكى تبيعها . وشاهدناها معها ، فهاهتز قلبى إشفافا إذ رأيت تلك الطفلة . . كانت شقراء ، وادعة كالجمال ، لا يظن من يراها أنها إيطالية . وكانت نفقات المعيشة فى (البندقية) زهيدة ، فأعطينا الأم بعض المال ، وتكفلنا بأن نعمل الفتاة . وكان لها صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغناء ، كى نهيء

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

٨٠

لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف منا قطعتين من فئة « السيكان » في الشهر ، وقد كان كنيلا بأن يوفر علينا نفقات أخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذي لن يؤون حصاده إلا بعد أمد طويل ، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج الفتاة ! .. على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار (١) ، فننقى أمسياتنا في لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم بلهو قد يكون أنسب وأفضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منها وطرا .. وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا إلى النساء لا يمت إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المتعة يستمد من الاثامة بالقرب منهن .. ولقد تعلق قلبي بالصغيرة « انجوليتا » في شغف جنوني ، ولكن هذا الميل كان أبويا ! .. ولم يكن لشهواتي أثر يذكر في ذلك ، فبقدر ما أخذ حبى ينمو ، راح احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليه يتضاعف .. وكنت أشعر بأننى خلى بأن استبشع أن أمس هذه الفتاة — إذا ما أدركت سن البلوغ — كما لو أن هذا العمل كان فاحشة مرذولة ! .. وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين الاتجاه ، دون أن يظن .. كنا قد دبرنا لأنفسنا — دون أن نتكبد عناء التفكير في الأمر — متعا لا تقل مذوبة عن تلك التي كنا قد فكرنا فيها من قبل ، وإن اختلفت عنها . واني لوائق من أننا كنا زاهبين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت . على أن نكتبى (٢)

(١) كانت الصبية تقيم مع أمها ، ويتكلم روسو وصديقه بنفادها .

(٢) يقصد خلاله مع السفر وتجارته البندقية .

وقعت بعد ذلك بقليل ، فلم تدعنى اساهم فى هذا العمل الطيب ، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبى . . فلنعد الآن إلى رحلتى :

كان أول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى ، هو أن أعود إلى (جنيف) ، أملا فى أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكينى من الانضمام إلى « ماما » المسكينة (١) . ولكن الضجة التى أحدثها شجارى مع السفير ، وحماقته التى حملته على الكتابة عن ذلك إلى البلاط ، جعلتانى أقرر الذهاب إلى البلاط بنفسى لأقدم حسابا عن مسلكى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل الجنون . وكتبت إلى السيد دى « تيل » — القائم بالشئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد « أميلو » — عن قراره ، ثم بارحت البنديقية فى أعقاب رسالتى مباشرة ، فأتخذت طريقى مارا ببيرجامى ، و (كوى) ، و (دومو دوسولو) — وعبرت ممر (سيمبلون) . وفى (سيون) ، أبدى لى السيد دى « شينيون » — القائم بأعمال فرنسا — ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل السيد ديلا كلوزير ، فى (جنيف) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور ، الذى اضطرت لأن أتقبل منه بعض المال . واجتزت (نيون) دون أن أرى أبى ، ولم يكن هذا العمل ليعفينى من ألم قاس اختلج به فؤادى ، ولكنى لم أكن أملك أن أحل نفسى على أن أظهر أمام زوجة أبى ، بعد ما أصابنى من سوء الطالع ، إذ كنت

(١) يقصد مدام دى لافوان طبيعيا .

موقنا من انها ستلقى الذنب على دون أن تسمع قولى . ولقد
لامنى «دوفيار» الكتبى - وكان صديقا حبيما لأبى - على هذا
الخطأ لوما شديدا ، فذكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ ،
استأجرت محفة ورحلنا معا إلى (نيون) ، فهبطنا فى فندق .
وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث أن جاء مهرعا
فاحتضننى . . وتناولنا العشاء معا . وبعد أن قضينا سهرة
كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التالى إلى
(جنيف) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما أذكر له بالعرفان ،
ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !



ولم يكن طريق (ليون) هو أقصر الطرق لغايتى ، ولكننى
رغبت فى أن أمر بالمدينة ، لأتحرى عن حيلة خسيسة من حيل
السيد دى مونتيجى . إذ اننى كنت قد اجتلبت من باريس
صندوقا صغيرا ضم صديرية وشيت حوامها بالذهب ، وبضعة
أزواج من أساور الأقمص المزرکشة، وستة أزواج من الجوارب
الحريرية البيضاء ، ولا شئ أكثر من ذلك . واستجابة لاقتراح
عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضمت هذا الصندوق
- أو بالأحرى ، هذه العلبة - إلى متاعه . ولكنه فى كشف
حساب الصيدلى - الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ،
والذى كتبه هو بيده - ذكر أن هذه العلبة ، التى أسماها
«طردا» ، كانت تزن أحد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك عن
نقلها أجرا هائلا . واستطعت التحقق - بفضل السيد
يوى ديلاتور ، الذى أوصاه بى السيد روجان خاله - من سجلات

جمارك ليون ومارسيليا ، أن «الطرد» المزموم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وأن أجر النقل لم يدفع إلا من هذا الوزن . وقد أضفت هذا البيان الرسمي إلى ذكريات السيد دى مونتيجي . وعدت إلى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وأنا متلهف على استغلالها . ولقد صادفت - خلال هذه الطريق الطويلة - مغامرات صغيرة في (كومي) ، باقليم (غاليه) ، وفي بقاع أخرى . ولقد رأيت - فيما رأيت - جزر (بوروميه) التي كانت جديرة بأن توصف . ولكن الوقت كان يمر سريعا ، وكان الجواسيس يضيّقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطرا إلى أن أنجز - في سرعة وبأسوأ حال - رحلة كانت تتطلب سعة من الوقت والطمانية ، الأمر الذي كان يعوزني . وإذا قدر للعناية أن ترعاني وأن تتيج لي - أخيرا - أياما أكثر سكونا وطمانية ، فلسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هذا المؤلف - إن استطعت - أو لأضيف إليه جزءا مكملًا ، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج (١) .

وكان ضجيج قصتي قد سبقني ، فما أن وصلت إلى باريس حتى ألغيت كل امرئ - سواء من الرسميين أو من العامة - قد استنكر جماعات السفر . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الرأي العام في البنديقية ، وبالرغم من الأدلة غير المدحوضة التي قدمتها ، مانئي لم أستطع أن أظفر بالانصاف ! . بل إن الأمر لم يقتصر على أنني لم أفرز بإرضاء ولا بتعويض ،

(١) عقب «روسو» على ذلك بقوله (٢) «ولقد عدلت الآن من هذا المشروع».

وإنما تركت — فوق هذا — تحت رحمة السفير ، فيما يتعلق
بمرتبى ، وذلك لمجرد أننى لم أكن فرنسيا ، فلم يكن لى الحق
فى أن أستجير بالدولة ، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية ،
لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. كان كل امرئ يقرنى على
أننى أهنت وأوذيت ونكبت ، وعلى أن السفير كان معتوها ،
فاسيا ، ظالما ، وإن المسألة كلها كانت عارا باقيا له . ولكن ،
ماذا بعد كل هذا ؟! .. لقد كان هو السفير ، أما أنا فلم أكن
سوى السكرتير .. وكان النظام الصالح — أو ما يطلق عليه
هذا الاسم — يقتضى ألا أنال أى انصاف ، فلم أنل شيئا
منه ! .. ولقد خيل إلى أننى بالشكايات المستمرة ، ويأظهار
هذا الأحمق أمام الملأ بما كان يستحق أن يظهر به ، قد أستطيع
أن اضطرهم إلى أن يطلبوا إلى أن أعقل لسانى ، وهو عين
ما كنت أرتقبه ، إذ أننى كنت قد صممت على ألا أطيع حتى أظفر
بالانصاف . بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك . ولقد
تركت أصرخ ، بل أننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من
ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى
سئمت — فى النهاية — أن أظل دواما على حق دون أن أنال
إنصافا ، فثبطت عزيمتى ، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى أساء استقبالى ، والذى كان
أقل الناس إصفاة لشكايتى ، هى السيدة دى بوزينفال . فقد
كانت لفرط اعتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو
المكانة ، لا تملك أن تفهم أن من الممكن لسفير أن يسئ
إلى سكرتيره . وقد كان مسلكها فى استقبالى مطابقا لهذه

النعرة الباطلة . ولقد غاظنى هذا ، حتى أننى كتبت إليها — بعد مبارحتى دارها — خطابا لعله أشد وأعنف خطاب كتبته فى حياتى ، ولم أذهب إلى دارها بعد ذلك قط ! .. ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتى ، ولكنى لمحت — خلال تملقه الجزوبى — أنه كان يتبع فى أمانة مبدأ من أعظم مبادئ المجتمع .. ذلك هو: التضحية دائما بالاضعف من أجل خاطر الأقوى ! .. ولكن شعورى المتأجج بعدالة قضيتى ، وكبريائى الفطرية ، لم يدعانى أطيق هذا التحيز صابرا . فكففت عن زيارة الأب كاستيل ، وبالتالي زيارة الجيزويتين الذين لم أكن أعرف من بينهم سواه ! .. وإلى جانب هذا ، فإن روح الجور والفساد لدى زملائه ، كانت تختلف عن صلاح الأب هيبه الطيب ، مما جعلنى أشعر بغفور من اجتماعهم ، حتى أننى — منذ ذلك الحين — لم أر أحدا منهم ، اللهم إلا الأب بيرتييه ، الذى قابلته مرتين أو ثلاثا لدى السيد دوبان ، إذ كان يعمل معه بكل ما فى وسعه على تنفيذ آراء مونتسكيو !

فلنختتم — إلى غير رجعة — ما بقى لدى من قول عن السيد دى مونتيجى ! .. لقد كنت أقول له — فى منازعاتنا — إنه لا يلقى به أن يستخدم سكرتيرا ، وإنما الأليق به أن يستخدم أحد كتبة المحامين . ولقد أخذ برأى هذا ، واستخدم — كخليفة لى — كاتب محام حقا ، فلم يلبث أن سرق منه ، فى أقل من عام ، عشرين ألف أو ثلاثين ألف لييرة . ولقد فصله وزج به فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصفة من الفضيحة والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الاهانات ما كان

٨٦ اعترافات جان چالده روسو - الجزء الثالث

الخدم يربأ بنفسه أن يتلقاه ، وانتهى - بفضل حماقاته - إلى أن استدعى ، وفصل من منصبه وأقصى إلى الريف ! . . . وكان من الواضح أن مسائلتي لم تكن منسية بين المسائل التي وجه إليه اللوم بشأنها في البلاط . وعلى أية حال ، فقد أوفد إلى - بعد قليل من اعتزاله العمل - وكيل أعماله كي يسوى حسابي ويدفع لى نقودي ، التي كنت في حاجة ماسة إليها ، إذ كانت ديونى في (البندقية) ، ديون شرف - إذا جاز أن نسميها كذلك يوما - وكانت تثقل قلبى بالهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بما في ذلك سند « جانيتو ناتى » . ومن ثم أخذت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع أن هذا خلفنى معدما - كما كنت من قبل - إلا أننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحمله . ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته ، الذى علمت به من صوت الشعب (١) . . . فليرحم الله هذا الرجل المسكين ! . . لقد كان في صلاحيته لمهنة السفر لا يفضلى في صلاحيتى - في صباى - لمهنة المحاماة (٢) . على أنه كان في يده - هو وحده - أن يسلك مسلكا شريفا في الاستعانة بى ، وأن يكلل سرعة ارتقاى إلى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق إليه - في صباى - والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط أن أصل إليه في سن متقدمة !

(١) يقصد الصحابة .

(٢) ذكر روسو في الكواسة الاولى من اعترافاته أن اباءه كان يريدون على أن يكون محاميا ، ولكنه لم يفلح في مهنة التعريب .

ولقد خلفت عدالة شكاياتي ، وعدم جدواها ، بذور السخط في نفسى على نظمنا المدنية الحمقاء ، التى تضخى بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقّة ، لغير ما مصلحة واضحة أعرفها . بل إنها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدى إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم ، وما يبيده القوى من جور ! . . ولم يمنع هذه البذور من أن تنمو إذ ذاك — كما ترعرعت فيها بعد — سوى أمرين : أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلق بسواى ، والمصلحة الشخصية — التى لم تؤد قط إلى أى شيء عظيم أو نبيل — لا يمكن أن تنتزع من قلبى قط تلك الخبثات القدسية التى لا يمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه . . أما الثانى فهو سحر الصداقة الذى سكب على غضبى شعورا ناعما خفف من حدته وهدأ من سورته . إذ كنت قد تعرّفت فى البندقية على شخص من أبناء منطقة خليج (بسكاي) ، كان صديقا لصديقى كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف — الذى أوتى كل المواهب وكافة الفضائل — قد شرع فى جولة فى ربوع إيطاليا ، لينمى فى نفسه الميل إلى الفنون الجميلة . وإذ خيل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة إلى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبقرى مثله خلق لكى ينمى العلوم . وأثرت عليه بأن يرحل إلى باريس ، فيقضى فيها ستة أشهر فى سبيل ذلك .

وقد صدقنى وأخذ بنصيحتى ، ومن ثم فانه رحل إلى باريس . . وكان فى انتظارى عندها عدت إليها . . وكان

ممكنه أكثر اتساعاً من حاجته ، فعرض على أن أشاطره إياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئاً بالتحمس لفروع المعرفة العليا . ولم يكن من شيء يسمو على قوى إدراكه ، فكان يستوعب ويهضم كل شيء بسرعة تدعو إلى العجب . ولكم شكر لى أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظمأً إلى المعرفة ، دون أن يدري كنه هذا الظمأ ومبعثه ! .. أية كنوز غنية بالأنوار والفضائل وجدتها فى هذه النفس القوية ! .. لقد شعرت بأنه الصديق الذى كنت أصبو إليه ، فغدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ، فكنا دائماً فى جدال . . ولم نكن نتفق قط على أمر واحد ، إذ كان كل منا عنيداً . ومع ذلك فقد كنا لا نطيق فراقاً . ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع . إلا أن كلامنا لم يكن يتمنى أن يكون الآخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانويل دى التونا » من أولئك الأفراد النادرين ، الذين لا تنجيبهم سوى أسبانيا ، وقلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القومية العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما أن فكرة الثأر كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبة فيه بعيدة عن قلبه . وكان أسمى نفساً من أن يحقد ، وكثيراً ما سمعته يقول فى هدوء مفرط ، إنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن ينال منه . وكان ميالاً إلى النساء فى غير لين أو ضعف ، فكان يلعب النساء وكانهن أطفال صغار . . وكان يلهو مع عشيقاته أصدقائه ، ولكنى لم أر له يوماً عشيقة قط ، ولا عرفته يشتغل أن تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة فى قلبه لا تدع نجلاً تط للواجم الشهوة .

ولقد تزوج هذا الشاب عقب أسفاره ، ومات في ريعان الشباب ، مخلفا طفلا . وانى لأومن — ايمانى بوجودى — بأن زوجته كانت المرأة الاولى ، والوحيدة ، التى أذاقته ملاذ الحب ! . . ولقد كان فى ظاهره تقيا كائى أنسانى آخر ، أما فى باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة . وفيها عداى ، كان هو الشخص المتسامح الوحيد الذى رأيته فى حياتى ، فما سأل امرأ من آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا أن يكون صديقه يهوديا ، أو بروتستانيا ، أو تركيا (١) ، أو متعبدا ، أو زنديقا ، ما دام هذا الصديق امينا شريفا . وبقدر ما كان عنيدا ، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهمية ، فانه كان يتراجع بمجرد أن يتحول الجدل إلى الدين ، أو حتى إلى الأخلاق ، وكان يمسك لسانه ، أو يكتفى بأن يقول : « لست مسئولاً إلا عن نفسى ! » . ومن الأمور التى تجل عن التصديق ، أن يتسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفاصيل . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد — مقدما — استخدام كل ساعة ، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة ، إلى درجة أنه كان — إذا دقت الساعة وهو فى منتصف إحدى العبارات — يفلق الكتاب دون أن يتم العبارة ! . . وكان بين كل هذه الأقسام — التى اعتاد أن يقسم إليها يومه — ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتأمل ، وما هو للحديث ، وما هو للعبادة ، وما هو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى ،

(١) يستعمل « روتسو » لفظ « تركى » كمرادف لمسلم .

٩٠ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

وما هو للرسم .. ولم يكن لآى لهو ، أو آى إغراء ، أو آية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم إلا إذا كان واجبا لا بد من أدائه ! .. وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت — عسى أن أجمعه — طُفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الإعجاب ! .. ولم يكن يثقل على الغير إطلاقا ، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى أدب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم أره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته ، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب أن ينفكه ، وكان فى ذلك لأمع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فإذا ما استثاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته على بعد .. ولكن الابتسامة كانت تبرى على أساريره ، أثناء صياحه ، وكان — فى غمرة انفعاله — يطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم ، كما أنه لم يؤت سيماء الأسبانيين .. كانت بشرته بيضاء ، وخداه مهتلئين ، وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصفرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى .. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصنعتى . ولقد توثقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى أن نقضى عمرنا معا ، فأذهب — بعد سنوات — إلى (أسكويشيا) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٩١

أجزاء هذا المشروع - فيما بيننا - في اليوم السابق على رحيله . ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذي لا يملكه الإنسان لنفسه في مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها . . فلقد قدر للأحداث بعد ذلك - وأعني مصائبى ، وزواجه ، وموته في النهاية - أن تفرق بيننا إلى الأبد ! . . وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا للخطط السوداء التى يدبرها اللئام . . أما المشروعات البريئة التى يدبرها الطيبون ، فانها لا تكاد تتحقق قط !



ولما كنت قد تذوقت متاعب العمل في خدمة الغير ، فقد عقدت العزم على ألا أعرض نفسى لذلك مرة أخرى . ذلك اننى رأيت أن خططى الطموحة التى أغرتنى الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتي في العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكنى - رغم ذلك - طردت منها . . ومن ثم فقد أليت على نفسى ألا التحق ثانية بخدمة أحد ، وأن أظل مستقلا ، فأستغل مواهبى التى كنت قد بدأت - أخيرا - أقدر مداها ، والتى كنت - حتى ذلك الحين - لا أنظر إليها إلا في تواضع . لذلك استأنفت العمل في « الاوبرا » التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى إلى (البندقية) . ولكى أفرغ إليها في أقصى هدوء ممكن - عقب رحيل « التونا » ، فقد عدت إلى الإقامة في فندقى القديم - « سان كينتان » - الذى كان يقع في حى منعزل ، يبعد قليلا عن (لوكسمبورج) ، فكان لذلك أكثر ملاءمة - لتمكينى من العمل في هدوء - من المسكن القائم في شوارع

(سانت أنوريه) الصاخب . وهناك وجدت في انتظاري السلوى الحقيقة التى أذاقتنيها السماء في شقوتى ، والتى كان لها وحدها فضل تمكينى من أن اتحمل تلك الشقوة . ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الإقدام على بعض الاسهاب في بيان الطريقة التى نشأت بفضلها .

فلقد أوتينا في الفندق مضيضة جديدة من (أورليان) ، اختارت للعناية بالغسيل فتاة من بلدها ، فيما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، شأنها في ذلك شأن المضيضة . وكانت هذه الفتاة — المسماة تيريز لافاسير — من أسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة في أورليان ، وكانت أمها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كفت دار سك النقود — في أورليان — عن العمل ، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمل . . في حين أن الأم افلست ، وتخبطت في أعمالها ، وانتهت إلى التخلّى عن تجارتها ، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التى أخذت تعمل ثلاثتهم من عملها !

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى ، أخذت بمسلكتها المحتشم . ، وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة ، التى بدت لعينى — إذ ذاك — نادرة المثال . وكانت الطلة التى تجتمع حول المائدة تضم — إلى جانب السيد دى بونفون — عدة من القساوسة الايرلنديين والجسكونيين ، وبعض أفراد آخرين على شكلتهم . وكانت مضيضتنا نفسها زعيمة الفوضى في حياتنا ، في حين أننى كنت الوحيد الذى اعتاد أن يتكلم وأن

يتصرف في وقار واحتشام . ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فإذا بالسآخرين ينقلبون على . ولو أنني لم أحس بميل طبيعي نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام في الأقوال والأفعال ، لا سيما لدى الجنس الآخر . ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورأيت أنها قد تأثرت بعطفى ، وأن نظراتها أخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت أنا . وسرعان ما نهت الرابطة التى لاح أن هذا التشابه في الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. وأهاج ذلك مضيعة الفندق — إذ لاحظته — فإذا بمسلكتها اللفظ يزيد من تطور علاقاتى مع الصغيرة التى لم يكن لها سوى نصير في الدار ، ومن ثم فأنها كانت ترمقنى في أسى إذا خرجت ، وتتنهد في ارتياح إذا ما عاد حاميتها ! .. وما لبثت تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا اثرهما المعتاد ! .. فقد خيل للفتاة أنها رأت في شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة في ذلك .. ولقد خيل إلى أننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم أكن — بدورى — مخطئا في ذلك ! .. ولقد أنبأتها — منذ البداية — بأننى لن أهجرها قط ، ولن أتزوجها إطلاقا ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، أمينا ، مما جعلنى سعيدا دون ما حاجة إلى أن أكون جريئا !

ولقد أدى خوفها من أن أستهاء إذا لم أجسد لديها ما كانت

٩٤ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

تعتقد أنني أنشده ، إلى تأخير هنائي أكثر من أى شيء آخر .
 ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمنى نفسها ،
 مشوقة إلى أن تمكّننى من أفهامها ، دون أن تجرؤ على الإيضاح
 بنفسها . وإذ كنت بعيدا عن أن أحسس السبب الحقيقى
 لخرجها ، فأننى عزوته إلى سبب جد خاطيء ، وجد مهين
 لشخصها وأخلاقتها . فقد اعتقدت أنها كانت ترمى إلى أن
 تنبهنى إلى أن صحتى قد تتعرض للأخطار ، وأوقعنى هذا فى
 كثير من الحيرة ، التى لم تصدنى عنها ، ولكنها سميت هنائى
 أياما عديدة . وإذ عز على كل منا أن يفهم الآخر ، فإن أحاديثنا
 فى هذا الصدد كانت الغازا واحاجى تدعو إلى أكثر من الضحك ،
 حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظننى معتوها ، كما أنني كنت
 لا أكاد أعرف لنفسى رأيا فيها . وأخيرا تصارحنا . واعترفت
 لى — وهى باكية — بزلة وحيدة تعرضت لها وهى تغادر مرحلة
 الطفولة ، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذى أغواها .
 وما أن فهمتها حتى صحت فى اغتباط : « البكارة ! .. جميل أن
 ترتجى فى باريس ، وفى سن العشرين ! .. آه ! يا تيريزى ، أنني
 لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة ، ولا أجدر فيك ما لم
 أكن أنشده آ » .



ولم أكن أسعى فى البداية لغير العبث ، ولكننى ما لبثت أن
 تبينت أنني وجدت أكثر من ذلك ، وأننى أوتيت زميلة ! .. فان
 قليلا من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليلا من التأمل فى
 موقفى ، جعلاننى أشعر أنني — فى الوقت الذى لم أكن أفكر فيه

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٩٥

فى غير ملذاتى — قد خطوط خطوات كثيرة فى تدعيم هنائى .
كان لا بد لى من عاطفة محتمة تحتل محل طموحى الخابى ،
فتملاً مؤادى . وقصارى القول اننى كنت بحاجة إلى خليفة
لما . . ولما كنت مضطراً إلى ألا أعاود العيش معها قط ،
فقد بات من المحتوم أن أبحث عن تعيش مع تلميذها ، وعن
أجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان
لا بد لى من نعيم الحياة الخاصة والفة المعاشرة ، لتعوضنى عن
المهنة اللامعة التى كنت قد نبذتها . . كنت إذا ما خلوت بنفسى
وحيدا ، أشعر بقلبى خاوياً ، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق
آخر . . وكان القدر قد حرمنى من تلك التى خلقتنى الطبيعة من
أجلها ، أو أقصائى عنها على الأقل . ومن ذلك الحين ظلت
وحيدا ، إذ اننى لم أعرف فى حياتى قط وسطاً بين كل شيء أو
لا شيء (١) . ولقد وجدت فى تميز العوض الذى كنت بحاجة
إليه ، فعميت بفضلها سعيداً بقدر ما سمحت تطورات
الأحداث !

ورغبت — فى البداية — فى أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك
جهودى ، إذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة
والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل إطلاقاً من أن أعترف بأنها
لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها .
وعندما انتقلت للسكنى فى شارع (نيف ديه بيتى شساب) ؛

(١) يريد أن يقول أنه آخذ أن يتكلم كل شيء ، أو ألا ينال شيئاً على



ورغبت - في البداية - أن اشكل ذهنها ، فبدأت في ذلك جهودي إذ ظل
ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تأثير عليه .

٩٧ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

كانت هناك — امام نوافذى فى فندق بونشسارتان — ساعة اضطررت إلى أن اقضى أكثر من شهر فى تدريب تميز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك فانه لا تكاد — حتى الآن — تحقق ذلك . ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعى ، كما أنها لم تعرف رقما واحدا ، برغم كل العناية الذى تجشسته كى أعلمها الأرقام . فهى لا تستطيع أن تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن أى شئ . . . أما الكلمات التى تستخدمها فى الكلام ، فكثيرا ما تكون نقائص ما تريد قوله بالذات ! . . . ولقد أعددت مرة قاموسا لتلك العبارات ، كى اسرى عن مدام « لوكسمبورج » ، فإذا أخطأها تنبىح فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه . بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارا رائعا فى المناسبات العصبية ، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد، أو برغم غبائها إن شئتم ! . . . وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت أجدها فيها — فى سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا — ما لم أكن أراه أنا نفسى ، فكانت تمحضنى من النصيح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنقزمنى من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى . . . وفى حضور أرقى السيدات ، وفى محضر العظماء والأمراء ، كانت مشامرها وآراؤها الجيدة وإجاباتها ومسلكتها تنتزع لها التقدير العام ، وتجلب من التهائىء — لطيف خصالها — ما كنت أشعر بصدقها !

والعاطفة — فى قرب المحبوب — تغذى العقل كما تغذى الفؤاد ، فلا يعود ثبة داع للبحث عن الأنكار فى أى مكان آخر ! . . . ولقد عشت مع تميز فى خير ما كنت خليقا بأن أعيش (٧٢ - اعترافات - ج ٢)

فيه مع أجمل عبقرية في الكون . ولقد حاولت أمها — التي كانت تفخر بأنها تربت في الماضي مع المركيزة دى مونيبيو — أن تدمى رجاحة العقل ، ورغبت في أن تتكفل بتوجيه عقل ابنتها ، فافسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . ودفعنى الغيظ من هذه المضايقة إلى أن أتغلب — بعض الشيء — على الحياء الأحمق الذى لم أكن أجرو معه على الظهور مع تيريز أمام الملاء ، فأصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة في الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لى . ولقد تبينت أنها كانت صادقة في حبها إياى ، مضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضتنى هذه الألفة الناعمة عن كل شيء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالأحرى أنه أصبح لا يشغلنى إلا كامتداد للحاضر ، إذ أننى لم أعد اشتئ سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر !

وادت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملامى الأخرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أقدر مسكنى إلا لأذهب إلى تيريز ، وبت مسكنها مقبرى تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى أن « الأوبرا » التى كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت — كلاما وموسيقى — فى أقل من ثلاثة أشهر . ولم تبق سوى بعض الحان تكميلية وبعض الحان لتصحب المناظر . وقد ضايقتنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه فى مقابل نصيب من الريح ، نجاء مرتين ، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشامر « أوغيد » ، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل — الذى كان يتطلب مثابرة — فى مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم فإنه لم يعد ، واكلت عملى بنفسى .

وإذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا — فى حد ذاته — « أوبرا » أخرى ، أشد عناء ! . . فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى باريس ، إذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد ديلابولينيير ، الذى قدمنى إليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابولينيير هو نصير^(١) رامو ، إذ كانت السيدة ديلا بولينيير تلميذة هذا المتواضعة ، المتفانية فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو^(٢) فى هذا المنزل ، كما ينبغى أن يقال ! . . ولقد ظننت أنه قد يفتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى أن أريه مؤلفى ، ولكنه أبى أن يراه ، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات ، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابلينيير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصغاء ، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم أكن أرجو أفضل من هذا . . ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لأبد وأن تكون شيئا بديعا ! . . وأسرعت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات ،

(١) النصير المتصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرمى أديبا

أو فنانا ويبدل له يد العون .

(٢) تعبير فرنسى معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يفضى

أهل البيت لقبه ويسرون لسرويه . ويتقابل فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو « الكل فى الكل » .

١٠٠. اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

وتهباً لى اثنا عشر من العازفين ، بينما تولى الغناء البرت ،
 وبيرا ، والآنسة بوردونيه . وما أن بدأ لحن الافتتاح ، حتى رمى
 « رامو » - باطنابه فى المديح - إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان
 ليكن أن يكون من تأليفى . ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدى
 أمارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث أن عجز عن نهالك
 نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » - كان أداؤها
 قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعة - فخطبني فى
 خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن أن جزءا مما سمع
 كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين أن الباقي من
 عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها ! .. ومن الصحيح
 أن مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان
 رفيع القيمة فى بعض اجزائه ، وعقيبا فى بعض آخر ، شأن
 العمل الذى يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض
 ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو »
 أنه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير ، لم يؤت أية
 موهبة ولا أى ذوق ! .. ولكن العازفين ، ورب الدار - بوجه
 خاص - لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى « رشيليو »
 - الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى
 بوبلينير ، كما هو معروف - بحديث مؤلفى ، فرغب فى أن
 يسمع « الأوبرا » بأكملها ، معتزما أن يعمل على عرضها فى
 البلاط إذا راقته له . ومن ثم مثلت « الأوبرا » - بكامل ما كانت
 تتطلب من مغنيين وموسيقين - على نفقة الملك ، فى دار السيد
 بونيفال ، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالإخراج
 .. ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى أن السيد الدوق دى

اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثالث ١٠١

« ريشيليو » لم يكف عن الصياح والتصفيق . وفي نهاية أغنية جماعية — في الفصل الخاص بتاس — نهض وجاعنى فصافحنى قائلاً : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! .. ما سمعت قط أجمل منه ، وإنى لأود أن أقدم هذه التحنة فى فرساي ! » . ولم تقبس السيدة دى بويلينير — التى كانت حاضرة — بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من أنه دعى ، إلا أنه لم يشأ أن يحضر .

وفي اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بويلينير — فى غرفة زينتها — استقبالا شديداً الجفوة ، وتعمدت أن تحط أمانى من شأن مؤلفى ، وقالت لى إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه ، ونصحتنى بالآأول كثيراً على أوبرائى .. وأقبل السيد الدوق بعد قليل ، فتحدث إلى بلهجة تخالف ذلك تماماً ، إذ أطرى مواهبى ، وبدأ مصرأ على أن يعمل على عرض مؤلفى على مشهد من الملك . وقال : « ليس هناك ما لا يمكن إجازته فى البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك أن تكتب فصلاً غيره ! » . وكانت هذه العبارة وحدها حافزاً دفعنى إلى أن أذهب إلى دارى ، فاحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ، استطعت أن أضع فصلاً يحل محل فصل « تاس » ، وكان موضوعه « هيسيوود (١) يتلقى الإلهام من إحدى عرائس خياله » .

(١) هيسيوود : كان شاعراً أغريقياً تناول الحياة بالبحث والتطليل ، محاولاً أن يضع دستوراً أخلاقياً يكلل المحبة والسلام . وقد قدم « كتابى » — فى العدد ٥٥ — سيرته وملخصاً لأعظم رسالاته : « الأيام والأعمال » .

١٠٢ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من أن ادس في هذا الفصل تسطاً من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتا وأكثر تمسكا وإحكاما مما كان في الفصل الذى كان يدور حول « تاس » . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى ، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا ، لقدر للأوبرا أن تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى — فيها كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه — فأرجأت أداء هذه المسرحية !

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت في (فرساي) — في الشتاء الذى أعقب معركة دى فونتينو — حفلات كثيرة ، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح الـ « بيتيت ايكورى » . وكان بين هذه مسرحية فولتير ، التى كانت تحمل اسم « أميرة نافار » ، والتى نظم رامو موسيقاها . وقد عدلت وبدا اسمها إلى « أعياد رامير » . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الأغاني والرقصات التى كانت في « الدراما » السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعرى أو التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هذه الغاية المزدوجة ، إذ أن فولتير كان — إذ ذاك — في (اللورين) ، وكذلك كان رامو . وكانا منهيكين معا في أوبرا « معبد المجد » (١) ، فلم يكن في وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فإن السيد دى ريشيليو تفكرنى ، وعرض

١٠٣ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

على ان اقوم بالمهمة .. ولكى احسن تبين ما ينبغى عمله ،
أرسل إلى كلا من الشعر والموسيقى على حدة . ولم أشأ - قبل
كل شيء - أن أمس الفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف ، فكتبت
إليه في هذا الصدد ، رسالة جد أمينة ومحترمة - في الوقت
ذاته - ونفا لما كان يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذى
يوجد الأصل الخطى له ، في ملف الأوراق « أ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥ .

« إنك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا - حتى اليوم -
منفصلتين دائما . وهما سببان كافيان لحبلى على أن أقدرك
وأن أسعى إلى أن أحبك . وإننى لفى هم من أهلك ، إذ تستخدم
هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمئذ
بضعة أشهر ، طلب إلى السيد الدوق دى ريشيليو - طلبا
جازما - أن أعد ، في لمح البصر ، مسودة صغيرة غير دقيقة ،
لبضعة مناظر تافهة وناقصة ، تتمشى مع أغنان ورقصات
لا تلائمها إطلاقا . وقد صدعت برغبته بخذايرها ، ورحت
أعمل في سرعة فائقة ، ودون ما إجادة . ثم أرسلت هذه المسودة
التعسة إلى السيد الدوق دى ريشيليو ، وأنا موثق من أنه لن
يستخدمها ، ومن أننى لن اضطر إلى تصحيحها . ولحسن الحظ
أنها بين يديك ، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء ، إذ أننى قد
أقصيتها تماما عن ذهنى . ولست أرتاب في أنك ستفتح كل
الأخطاء التى لابد من أن تكون قد أفلتت منى في تعجل تأليف
التصميم البسيط ، نأنك قد ملأت كل نقص !

١٠٤ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

« وإننى لأفكر أن من السهوات التى تنم عن طيش ، أننى نسيت أن أوضح فى هذه المناظر — التى تربط بين الأغاني والرقصات — كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر . وإذ لم يكن الشخص الذى أقام الحفلات لتكريمها ساحرا ، وإنما كان سيدا أسبانيا ، لذلك يبدو لى أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا . فأرجو أن تتكرم يا سيدي بإعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا احتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة . وانظر ما إذا كان من الضروري أن تفتح أبواب السجن ، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعد من أجلها . . . إننى لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله زرى للغاية ، وأنه ليس مما يليق بأى كائن مفكر أن يحمل هذه التباهات على محمل الجد ، ولكن . . . بما أن علينا ألا نسيب من الأشياء إلا أقل ما استطاع ، فمن الواجب أن نبدل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك فى أوبرا غنائية راقصة رديئة .

« إننى أدع لك وللسيد بالوكل شيء ، واعتقد أننى لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكرى عنها قريب ، وبأن أؤكد لك يا سيدي ، إلى أى مدى يشرفنى أن أكون . . . الخ » .

ولا يعجبني المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم — إذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين — فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، فحمله الرئاء المرن على أن يبدى كثيرا من الاعتبار للوائد الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكنته !



اعتراقات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٠٥

وإذ حصلت من السيد دى فولتير هذا السلطان ، وأعفيت من كل اعتبار لرامو — الذى لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلى — فأننى حكمت على العمل — ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد أنجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، إذ كان همى الأوحده هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا ، ومن حقى أن اعتقد أننى قد وفقت . أما مهمتى — فى الناحية الموسيقية — فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا عن أننى اضطررت إلى أن أولف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الافتتاحى ، وكل الحان الإلقاء الغنائى^(١) التى تكلفت بهسا فوجدتها بالغة الصعوبة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور — فى كثير من الأحيان — وبوساطة أنغام سريعة جدا . ذلك لأننى عهدت عزمى على ألا أغمر أو أعبد لحنا واحدا ، حتى لا يتهمنى رامو بإفساد الحانه الأصلية . ولقد وفقت فى هذا الإلقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة ، رائعة فى تناسق نغماتها ، بوجه خاص . ولقد أدى التفكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما — على هذا النحو — إلى رفع روحى المعنوية ، وبوسعى أن أقول إننى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حبه ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العام ذاته أن يعلم بفضل فىه — حافظت دائما على مثلى ومستواى !

(١) المقدمات التى تلغى بالغناء ، دون أن تكون شيعرا موزونا .

١٠٦ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

ولقد أجريت التجارب على المسرحية — بالشكل الذى نقحتها إليه — فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتنى الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين أن رامو لم يحضر ، أو لعله تعمد أن يتوارى . وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى لمعربة بالأسى وهذا مطلعها :

« ألا أيها الموت تعال ، فاختم تعاسات حياتى ! » .

وكنت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتمشى معها ، ومع ذلك فإن هذه الفتاحة هى التى خصتها السيدة ديلا بويلينيى بنقدها، إذ اتهمتنى — فى تحامل — بأننى وضعت لحنا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل — فى إنصاف — عمن كتب كلمات المناجاة، فاطلمته على المخطوط الذى كان قد أرسله إلى، والذى أثبت أنها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطيء — فى هذه الحال — هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا — خلال التجربة — لاستهجان السيدة ديلا بويلينيى ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة ، فقد أثير علىى بتنقيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كان لابد من استشارة السيد رامو بشأنها . وأكربنى أن تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت أرتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت إلى بيتى بقلب مثقل . . . وسقطت مريضا ، وقد هدنى الإعياء ، وراح الأسى ينهشنى . . وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج !

(١) المونولوج : وهو الحديث التردى الذى يلقيه المرء لنفسه .

١٠٧ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

وأرسل رامو — الذى وكلت إليه التعديلات التى أشارت إليها السيدة ديلا بويلينيرا — يطلب إلى افتتاحية « أوبراى » الكبرى ، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . وفطنت — لحسن الحظ — إلى الحيلة ، فرفضت . ولم يكن قد بقى على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة ، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية ، واضطر إلى أن يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل . . . وكانت على النسق الإيطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإنه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « المماليت » — رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى — أن هواة الفن أبدوا كل الرضى عن مؤلفى ، وأن الراى العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج رامو . غير أن هذا اتخذ من الإجراءات — بالتواطؤ مع السيدة ديلا بويلينير — ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت فى تلك القطعة . فعلى الكتب (١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائها أسماء

(١) يتصد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . وما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسيقى . وإنما أوود فقط اسم « لامل » مؤلف « الباليه » . وقد عرضت التمثيلية فى (موساى) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٢٥ ، أى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « فولتر » ورسالته . وقد ذكر « روسو » — فى الفقرة السابقة — أن « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشعراء » قبل هذا انعرض بخمسة أيام ، فكانه أنجز التعديلات فى حوالى يومين !

١٠٨ اعترافات جان چال روسو - الجزء الثالث

المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وأثر رامو إغفال اسمه على أن يرى اسمي مقترنا به !

وما أن تمكنت من مغادرة داري ، حتى رغبت في زيارة السيد دي ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فانتني ، إذ أنه كان قد رحل إلى (دنرك) ، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى ايتوسيا (اسكتلندا) . ولما عاد ، قلت لنفسى — لأبرر كسلى — إن المناسبة قد انقضت . وبما أنني لم أعد أراه منذ ذلك الحين ، فقد أضعت على نفسى التكريم الذى كان مؤلفى يستحقه . . التكريم الذى كان جديرا بأن يدره على . ومن ثم فإن وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى والنقود التى كلفنيها . . كل هذا تكبدته دون أن يعود على بـ « سو » واحد ، بل ودون أى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد دي ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ، وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما استطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التى كنت أغضب نفسى على إرضائها ، والتى اعتدت أن أثابر على أن أبدى لها مجاملتى . ولقد شرح لى « جوفكور » الأسباب ، فقال : « هناك — أولا — صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا برعايتها ، والذى لم يكن يحتل أية منافسة . . وموق ذلك ، كان ثمة ذنب جوهرى يصمك فى نظرها ، ولن تغتفره لك أبدا . . ذلك هو أنك جنيفى ! » . . وهنا بين لى أن الراهب « هوبير » — الذى وفد هو الآخر من (جنيف) ، والذى كان

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٠٩

صديقا صدوقا للسيد ديلا بوبلينير — كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة التى كان يعرفها تمام المعرفة ، والتى حرصت — بعد الزواج — على ان تولى كل جنينى كراهية لا سبيل إلى مغالبتها . وأردف جوفكور قائلا : « ومع أن لابوبلينير يكن لك ودا — أنا موثق منه — إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته ، فهو مدله فى هوى زوجته ، وهى تكرهك . . وإنها لخبيثة ، مأكرة . . ولن يكون لك شأن فى هذا المنزل » . وأدركت ما كان يرمى إليه !



ولقد أدى لى جوفكور هذا خدمة أخرى — حوالى ذلك الوقت — كنت فى حاجة ماسة إليها . فلقد فقدت أبى الفاضل ، وقد ناهز الستين من عمره . ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بأن أحس بها فى الماضى ، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الآونة . إذ أننى لم أحاول قط — خلال حياته — أن أطالب ببقية تركة أمى التى كان يحصل دخلها البسيط . أما بعد موته ، فلم يداخلنى تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة أخى كان مقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها ، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعى المحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل ، وكانت المسألة محوطة بالريب ، فقد رحت أنتظر نبأ حاسمها فى صبر نائذ وتلف . وفى ذات مساء ، وجدت ، إذ أبت إلى مسكنى — الرسالة التى كان ينتظرا أن تشتمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأمضها ، وأنا

١١٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

ارتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي ، وقلت لنفسى في ازدياء :
 « وبعد ؟ ! .. أينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة
 والفضول إلى هذه الدرجة ؟ » .. ووضعت لفورى الرسالة
 على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، واويت إلى فراشى في هدوء ،
 نحظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحت في اليوم التالى
 متأخرا ، دون أن أعود إلى التفكير في الرسالة . وفيما كنت
 ارتدى ثيابى ، لمحتها ففضضتها في غير تعجل ، ووجدت فيها
 حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار السارة - في آن
 واحد - ولكن بوسعى أن أقسم أن اقواها جميعا كانت تلك التى
 نبهتنى إلى انتصارى على نفسى . واستطيع أن أنكر عشرين
 من أمثال هذه المناسبة في حياتى ، ولكنى لا أجد وقتا لى
 أروى كل شيء . ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود
 إلى « ماما » وأنا أبكى حسرة على الاوقات السعيدة ، التى كنت
 فيها على استعداد لأن التى بكل شيء عند قدميها ! .. كانت كل
 رسائلها توحى بضيقها . ولقد أرسلت لى اكواما من الوصفات
 والأسرار التى كانت تزعم أن بوسعى أن أجمع بها ثروة لى ولها .
 ولقد كان مجرد التفكير في فاقتها يعصر قلبى ويضيق أفق عقلى .
 وكان القليل - الذى امتدت أن أرسله إليها - يتع فى أيدى
 الأثقال الذين كانوا يحيطون بها ، دون أن تنتفع بشيء منه .
 فجعلنى هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعمساء فيما كانت تمس إليه
 حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع
 « ماما » من قبضاتهم ، مما سيرد ذكره فيما بعد .
 وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل
 أربعة .. بل أننا كنا سبعة أو ثمانية ، كما يحسن أن يقال .

اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثالث ١١١

ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية ، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، إلا أن أمها لم تكن على ثساكلتها . فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلا — بفضل رعايتي — حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنيمة . فإذا بالآخوات ، والأبناء ، والبنات ، والأحفاد يقدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في (انجير) . . وأصبح كل ما أفعله من أجل تيريز ، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين . ولما لم أكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فأننى لم ارتكب أية حماقات . بل إننى في اغتباطى بأن أعول تيريز — في حياة لا بأس بها ، خالية من الترف ، ولكنها في وقاء من الحاجة — أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن أقتصر على ذلك . . ولكننى استسلمت للقدر الذى كان يتعقبنى . . ففى الوقت الذى كانت فيه « ماما » ضحية لأنذالها ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعى أن أقدم أى عون يعود بالنفع على تلك التى كنت أقصد نفعها فى الحالين . ولقد كان من العجيب أن صفرى بنات السيدة لوفاسير — وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من أهلها — هى الوحيدة التى راحت تعول أباهما وأما . . وأن هذه المسكينة — بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء — أصبحت فريسة لنهبهم ، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين أبناء أختها سوى واحدة فقط ، تدعى « جوتون ليدوك » ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع ، برغم ما كان يفسدها من قذوة الآخرين ودروسهم .

١١٢ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين ، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب ، فأتانا أنادى ابنة الأخ بيا ابنة أخى ، والعمة بيا عمى . وأصبح الفريقان ينادياننى بياعمى . . ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذى أنادى به تيريز باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المداعبة !



ومن المعلوم أننى لم أضيع لحظة واحدة — فى مثل هذا الموقف — دون أن أحاول أن انتزع نفسى منه ، وإذ حدثت أن السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد أأمل فى شيء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا ، فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوما بعد يوم . ولقد أثير على بأن أقدم تمثيلتى الهزلية الصغيرة « نارسيس » على مسرح الإيطاليين « أوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرنى كثيرا . ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر إذ أننى لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية . حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم . ولجأت فى النهاية إلى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ، والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع . ففيمما كنت أتردد على دار السيد ديلا بوتلينير ، ظلت بعيدا عن دار السيد دويان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلات القربى ، إلا أنهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١١٣

بل لم تكن بين الدارين أية صلة ، وإنما كان « ثيريو » هو الوحيد الذى اعتاد أن يتردد على هذه وتلك . وقد وكل إليه أمر السعى إلى حملى على العودة إلى دار السيد دوبان .

وكان السيد فرانكوى ماضيا — فى تلك الأثناء — فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . وأظنه كان يطمح فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرغب — فى سبيل ذلك — فى أن يضع كتابا ، وقد خطر له أننى أستطيع أن أكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دوبان — من ناحيتها — رأى مشابه فى شخصى ، كما أنها كانت تفكر فى أن تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا أن يستأجرانى لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمائه . وكان هذا هو الهدف من مساعى ثيريو . فطلبت — كعربون — أن يستخدم السيد دى فرانكوى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيلية فى الأوبرا ، موافق . وأجريت عدة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » فى « المخزن » (١) فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على أننى شعرت أثناء الأداء الموسيقى — الذى أساء « ريبيل » الإشراف عليه — بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هذا فأننى سحبتها دون ما إيضاح ، ودون أن أعرض نفسى لسماح رفضها . ولكننى رأيت بجلاء ،

(١) القسم الذى كانت تحتفظ فيه المناظر المسرحية وتقلب التبليل .

١١٤ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

ومن عدة بوادر ، أن التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت في أكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعد حقا بأن يهيئ السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها . وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيّل إلى دائما — فى هذه المناسبة وفى كثير غيرها — بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على أن يدعائى اكتسب شهرة محققة فى المجتمع . ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن — عندما تظهر مؤلفاتهما — أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبى . ومع ذلك ، فإن السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة فى رأيها عن كفايتى ، ومن ثم فإنها لم تستخدمنى قط إلا لأكتب ما كانت تمليه على ، أو لأقوم لها بأبحاث علمية بحثة ، ومن ثم فإن هذا الظن — فيما يتعلق بها — قد يكون جائرا !

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفصل الأخير إلى تشييط عزيمتى تماما ، فهجرت كل أمل فى الرقى والمجد ، ولم أعد أفكر فى مواهبى الحقيقية أو الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذاتك اللذين تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فأننى تفرغت تماما للسيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدفعنى هذا إلى سعة من العيش موفورة . . . فإن المرتب الذى تقاضيته فى العامين الأولين — وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا — كان لا يكاد يوفر لى حاجاتى الأولية . إذ أننى كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منها ، فى حجرة مؤنثة ، بحى من الأحياء التى تتطلب نفقات

كثيرة ، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر ، في الطرف الأقصى
 لباريس ، عند نهاية شارع (سان جاك) ، حيث كنت أذهب
 لتناول العشاء في كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس .
 وسرعان ما ألقت عملى الجديد ، بل إننى بدأت أميل إليه
 فاهتمت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دى
 فرانكويى ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود أكدا من الورق
 بها كنا نكتبه في هذا العلم ، سواء عن صواب أو عن خطأ ، برغم
 أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية ! . ولقد ذهبنا — في سنة ١٧٤٧
 — لقضاء الخريف في (تورين) ، في « شاتو دى شينونسو » ،
 القصر الملكى القائم على نهر الشير ، والذي شيده هنرى الثانى
 من أجل ديانا دى بواتير . . التى لا تزال الحروف الأولى من
 اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل إلى السيد
 دوبان ، بوصفه المشرف العام على الأراضى الزراعية للملك .
 ولقد استمتعنا كثيرا بالانتماء في هذا المكان البديع ، وازددنا
 سمعة ، حتى أننى أصبحت بدينا كالرهبان ! . . ونعمنا بقدر
 كبير من الموسيقى ، كما أننى ألقت عدة ثلاثيات غنائية (١) ،
 زاخرة بالقوة وبالتناسق النفسى ، وسوف أتحدث عنها في
 « الملحق » إذا قدر لى أن أكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض
 المسرحيات الفكاهية ، واستطعت — في خمسة عشر يوما — أن
 أوّل واحدة ، من ثلاثة فصول ، أسميتها « الخطبة المتهورة » (٢) ،

(١) قطع غنائية يشارك في أدائها ثلاثة اشخاص .

L'Engagement Téméraire (٢)

وهى موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرجحها المفرط .
ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى ، منها قصيدة
ب عنوان « درب سيلفيا » (١) ، عن درب فى المتنزه الذى كان
يمتد على ضفاف نهر (الشير) . على أن هذا لم يصرفنى عن
دراساتى الكيمياوية ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة
دوبان .

وبينما كنت ازداد سمنة فى شينونسو ، كانت تميزى
المسكينة تتضخم فى باريس بشكل آخر ، حتى إذا عدت ،
وجدت « المؤلف » الذى كنت بداته ، قد تقدم بدرجة لم أكن
أتصورها (٢) . وقد دفع بى هذا — نظرا لموقفى — إلى حيرة
بالغة ، لولا أن زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان
بوسعها أن تخرجنى من المأزق . وهى من البيانات الدقيقة
التي لا أملك أن أبوح بها فى بساطة ، لأنى قد اضطر — إذا
أقدمت على أى إيضاح — إلى أن التمس لنفسى المعاذير ، أو
إلى أن أدين نفسى ، وما أراى راغبا فى أن أفعل هذا أو ذاك !

ففى أثناء إقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا أن نتناول
وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من أن نأكل فى أحد
المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالقرب من مقر
« الاوبرا » . . وكانت زوجة حائك ، تقدم أطعمة غير شهية ،

(١) لم يلبث القصر أن آل الى مالك هدم هذا الدرب الذى اذاع روسو
شهرته ؟! والذى كان يجتذب زوار فرنسا من الاجانب .

(٢) من المفهوم انه يعنى أن سملته بغيره انبرت جنينا .

ولكن مائدتها كانت قبلة الطامعين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طبييين موثوق بهم . فما كان لاي مجهول أن يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دي جرافيل » ممن استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والذكاء ، ولكنه بذىء اللسان . . وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان . . وكان « الكوماندور دي تونان » حامى كل فتيات الأوبرا ، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان — فى كل يوم — كافة أنباء هذا الوسط العابث . . أما السيدان « دوبليسى » — وكان « بكباشى » محالا على الاستيداع ، وشيخا طيبا حكيما — و « انسيلييه » (١) — وكان من ضباط الفرسان — فقد فرضا قدرا من النظام على

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « الى هذا الانسياح اهديت تمثيلية فكهة صغيرة من تأليفى ، بعنوان « أسرى الحرب » ، وشعبتها بعد النكبات التى نزلت بالفرنسيين فى بافاريا وبوهيميا ، ولم أجرؤ اطلاقا على أن اعترف بها ، أن أن اعرفها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو أن الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين ، لم يحفظوا — فيها أحسب — بأفضل ولا أصدق من الاطراء الذى اشتملت عليه هذه التمثيلية . ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة ، فإني لم أجسر على أن اعترف بأئنى مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى . واذا كنت أشد أسمى لصائب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم ، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن ، إشارات الحب الصادق ، الذى ذكرت — فى الجزء الأول من اعترافتى — عهد وسببه ، والذى كنت استحبى من ابتدائه ! »

(وقد ورد لكم ذلك فى الكرامنة الخامسة) .

هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الأغنية . . ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين في حرفهم ومهنتهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى موركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة^(١) الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم . وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مريحة في غير صخب ، كثيرة الثروة في غير بذاءات . فما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة — بكل قصصه الماجنة — الأدب الذى ألفه في البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة ، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان المر الذى يفضى إلى دار السيدة لاسيل ، يؤدي كذلك إلى حانوت السيدة دوشات ، وهى تاجرة أزياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم — إذ ذاك — فتيات موهورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهم الحديث ، بعد الفداء . وكان بوسعى أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو أننى كنت أكثر جراءة مما أنا . إذ أننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت

(١) يقصد المعلمين .

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثالث ١١٩

أذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الأحيان ، عقب رحيل « التونا » . وهناك ، سمعت فيضا من الحكايات المسلية — كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي ألفيتها مستتبة هناك — دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! .. فمن أشرف أوفوا ، إلى أزواج خدعوا ، إلى نساء استخفتهن الغواية ، إلى أطفال ولدوا في الخفاء .. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواء ، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب . ولقد أصابتنى عدوى هذا كله ، فصفت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رأيته سائدة بين قوم ظرفاء ، وممرطى الأدب بوجه عام ! .. وقلت لنفسى : « ما دام هذا هو العرف السائد في البلاد ، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها » .. وهذه هى الحيلة التي كنت أنشدها . فاعتزمت — فى اغتباط — أن انتهجها ، دون أية هواجس من ناحيتى أو تردد .. وكل ما كان على أن تغلب عليه ، هو مخاوف تيريز ، التي كابدت فى حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لانتقاذ شرفها ، كل ما فى الدنيا من عناء ! .. ولقد انضمت لى أمها التي كانت تخشى التورط فى طفل جديد . وانصاعت تيريز فى النهاية ، فاختيرت مولدة (داية) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الأنسة « جوان » — كانت تقيم عند (رأس سان أوستاش) — لنعهد إليها بهذه الوديمة . فلما آن الأوان ، نقلت تيريز — بمعرفة أمها — إلى دار الأنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع إحداهما فى ثياب الطفل ، على أن



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احدهما في
نياب الطفل ، على أن تودعه القابلة (الداية) ادارة ملجأ اللقطاء .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٢١

تودعه القابلة (الداية) إدارة ملجأ اللقطاء ، بالطريقة المعهودة .. وفى العام التالى ، تكررت المضايقة ، وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى أغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر — من ناحيتى — لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبدو تباعا كل التغييرات التى أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الأولى ، إذ أن معتباتها — التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة — لن تلبث أن تضطرنى إلى العودة إليها كثيرا .



ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بينى وبين السيدة « دييناي » ، التى كثيرا ما سيتدرد اسمها فى هذه المذكرات . كان اسمها الأنسة ديسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « دييناي » ، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا عاما للأراضى الزراعية . ولقد كان الزوج موسيقيا ، على شاكلة السيد دى فرانكوى . كذلك كانت هى الأخرى موسيقية ، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكوى إلى السيدة دييناي ، فكنيت أناول العشاء معها فى بعض الأحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا . على أنها أوتيت صديقة — تدمى الأنسة « ديت » — كانت تعتبر خبيثة ، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى

لم يكن حسن السمعة ، واعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة ديبيناي ، التي خبتها الطبيعة بسجية غلابة ، وصفات رائعة تخفف من ، أن تتوازن مع نزواتها . ولقد أوحى إليها السيد دى فرانكويى قسطا من الود الذى كان يمكنه نحوى ، وصارحنى بصلاته بها ، ولهذا السبب فأننى ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا ، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد ديبيناي ! . . كذلك أثرنى السيد دى فرانكويى باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لى بنفسها إطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتة أننى كنت على علم بها . فأننى لم أفتح فمى — ولن أفتحه — بالحديث فى هذا الموضوع ، إليها أو إلى أى امرئ آخر (١) . ولقد أدت كل هذه الاعترافات — من كل من الطرفين — إلى الزج بى فى موقف جد حرج ، لاسيما إزاء السيدة دى فرانكويى ، التى كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتى بغريماتها . ولقد عمدت — بقدر ما كان بوسعى — إلى مواساة هذه السيدة البائسة ، التى لم يبادلها زوجها — دون ما شئك — ما كانت توليه من حب . وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء ، دون أن يقدر قط لآى من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من أسرار الاثنين الآخرين ، ودون أن أخفى عن كل من المرأتين ودى لغريماتها! . .

(١) لم تعد اعترافات السيد دى فرانكويى لروسو سرا خائيا على أحد . فان المذكرات التى نشرت باسم ديبيناي تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث ، من زوجها . . . وأنها نقلت هذا المرض إلى عشيقها ، الذى قدر له أن يموت به!

اعترافات جان جال روسو - الجزء الثالث ١٢٣

ولقد حاولت السيدة دى فرانكويى أن تفيد منى فى أمور كثيرة، فقوبلت برفض بات . . كما أن السيدة ديبيناي أرادت أن تحلنى - ذات مرة - رسالة إلى فرانكويى ، فلم تقابل برفض مشابه محسوب ، بل إننى صارحتها كذلك بجلال تام ، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض على مثل هذا الأمر - مرة ثانية - إذا شأنت أن تقصينى عن دارها إلى الابد ! . . ومن الواجب أن أنصف السيدة ديبيناي ، فإنها كانت أبعد من أن تبدى استياء من مسلكى ، بل إنها تحدثت عنه إلى فرانكويى بأبلغ تقدير ، ولم يقل ترحيبها بى بعده ، عما اعتادت أن تستقبلنى به قبله . وهكذا استطعت أن أمضى موقفاً وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت اعتمد عليهم فى معاشى - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم صادق الليل . . واستطعت أن احتفظ - إلى النهاية - بودهم ، وتقديرهم ، وثقتهم ، إذ رحت أتصرف فى رفق ومجاملة ، يرافتهما - دائماً - استقامة وحزم . وبالرغم من غبائى وحماقتى ، فإن السيدة ديبيناي كانت تميل إلى أن تصطحبنى إلى الحفلات اللاهية التى كانت تقام فى (الاسيفريت) ، فى قصر على نهر (سان دنيس) ، من أملاك السيد دى بيلجراد . وكان شمة مسرح هناك ، كثيراً ما أخرجت عليه مسرحيات . وقد عهد إلى بأحد الأدوار ، فظلت استذكره ستة أشهر - دون انقطاع - ومع ذلك فأننى لم استغن عن راح يهمس إلى بمعبراته من البداية إلى النهاية ، أثناء التمثيل ! . . وبعد هذه التجربة ، لم يعرض على أى دور !

١٢٤ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

وفي تعرفى بالسيدة ديبيناى ، حظيت كذلك بمعرفة الأنسة دى بيلجراد ، التى لم تلبث أن أصبحت كونتة هودينو . وكانت أول مرة رأيته فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثنى طويلا (١) ، بتلك الألفة الساحرة التى فطرت عليها . والفتيتها مفرطة فى اللطف ، ولكنى كنت أبعد من أن أرى انه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتى يوما ، وأن تجرنى — عن براءة ودون إدراك أو قصد — إلى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع أننى لم أتحدث عن « ديدرو » منذ عودتى من البندقية ، ولا عن صديقى السيد « روجان » ، إلا أننى لم أهمل أيا منهما ، بل أن روابط الود أخذت تزداد توثقا بينى وبين الأول — بوجه خاص — يوما بعد يوم . وكما أننى أوتيت « تيريز » ، فقد أوتى هو « نانيت » ، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا . ولكن الفارق كان فى أن تيريزى ، وإن ماثلت نانيت فى حسن الشكل ، إلا انها كانت أرق مزاجا والطف شخصية منها ، وقد خلقت لترتبط برجل محترم . أما فتاته فكانت سليطة ، « زفرة » اللسان ، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية . ولقد تزوجها — مع ذلك — وكان هذا عملا طيبا منه ،

(١) استعمل « روسو » هنا تعبيراً غير شائع فى الفرنسية ، لذلك

استعملنا فى الترجمة « حدثنى » بدلا من « تحدث الى أو معى » !

١.٢.٥ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

إذا كان قد وعدها بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحاجة إلى أن
أحذو حذوه ، إذ أنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقاً !

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دى « كونديللاك » ، الذى لم
يكن أفضل منى حالاً فى الأدب ، ولكنه كان مهيناً لأن يصير إلى
ما أصبح اليوم عليه . ولعلنى كنت أول من أبصر كفايته ،
وقدره حق قدره . ولاح أنه كذلك ارتاح إلى ، وعندما احتبست
نفسى فى غرفتى بشارع (جان سان دنيس) — على مقربة من
«الأوبرا» — لأضع الفصل الذى ضمنته أوبراى عن «هيسود»،
اعتاد أن يفد فى بعض الأحيان ، ليقبض الغداء معى، وحيدى،
وكنا نتقاسم النفقات . ولقد كان يعمل — إذ ذاك — فى كتابه :
« رسالة فى أصل المعرفة البشرية »، الذى كان أول مؤلفاته .
فلما فرغ منه، تمطت الحيرة فى العثور على كتبى يتكفل بنشره .
إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء فى صلف
وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع — إذ ذاك — ومن
ثم ثلثته لم يكن مورداً لموضوع جذاب . ولقد تحدثت إلى
« ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على أن يتعرف
إليه . ولقد خلقا لى يتوافقا ، فسرعان ما تألفا . وأغرى
« ديدرو » الكتبى «دوران» على أن يقبل مخطوط الراهب ،
فتسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة ، فى مقابل كتابه
الاول ، مائة «ايكو» ، وكان فى هذا إيثار له وتكريم ما كان من

١٣٦ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

المحتمل أن يلقاها لولاي ! .. ولما كنا نحن الثلاثة (١) نقيم في
أحياء متباعدة جدا ، فلما كنا نجتمع مرة في الأسبوع ، في
(الباليه رويال) ، فنذهب لتناول الغداء معا في فندق (البانييه
فلورى) . ولا بد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت
محببة إلى ديدرو كثيرا ، إذ أنه لم يتخلف عنها قط ، وهو الذى
كان يخفق دائما في أن يفكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت -
في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تسمى « الساخر » (٢) ،
على أن نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط
الأولى للعدد الأول ، فادى هذا إلى أن أتعرف إلى «دالبيير» ،
الذى حدثه ديدرو عن النشرة . غير أن أحداثا - لم تكن
منظورة - اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد .
وكان هذان المؤلفان (٣) قد اضطلعا بوضع «قاموس محيط» ،
تصديقه - في البداية - أن يكون نظيرا مترجما لموسوعة
« تشامبرز » ، وتقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى »
الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو في
أن يشركنى في بعض أجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على أن
اضطلع بالقسم الموسيقى . وقد قبلت ، وأديت مهمتى في عجلة ،

(١) المراهب وديدرو وروسو .

(٢) Le Persi Fleur

(٣) ديدرو ودالبيير .

اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثالث ١٢٧

وفي غير إجابة ، خلال الأشهر الثلاثة التي حددتها لي ، كما حددها لكافة المؤلفين الذين قدر لهم أن يشتركوا في هذا المشروع . على أنني كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في الموعد المعين ، فأسلمته مخطوطي ، الذي كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وُصفاء السيد دي فرانكويي ، ويدعى ديبون ، فكتبه بخط حسن ، ودفعت له في مقابل ذلك — من جيبى الخاص — عشر قطع من فئة «الايكو» ، لم يقدر لى قط أن استردها . إذ أن ديدرو كان قد وعدنى — باسم الناشرين — بتسقط من الأرباح ، لم يعد إلى محادثتى بشأنه مرة أخرى ، ولا فاتحته أنا بصدده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه . واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة « دوبريه دي سان مارو » والسيد « ريومير » أن فيها ما يمسها ، ومن ثم فقد سجن ديدرو — من أجلها — فى سجن (فانسين) . ولن يصف شيء بمدى التبايح التى أحدثتها فى نفسى محنة صديقى . فإذا بخيالى المكتئب — الذى اعتاد دائما أن يضخم المحن — يجمع فى انزعاجه ، إذ خيل إلى أن ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ، فكنت أجن لذلك ، وكتبت إلى السيدة دي بومبادور، أناشدها

١٢٨ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

إطلاق سراحه ، أو العمل على أن أحبس معه . ولم ألتق ردا
 ما من خطابي ، إذ أنه كان جدي بعيد عن المعقول ، فلم يحدث
 اثرا . ولست أدمى لنفسي فخر أن يكون خطابي قد ساهم
 فيها حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو
 المسكين . على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة
 أخرى بنفس القسوة ، فليست أشك في أنني كنت أموت كمدأ
 وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعين . . وحتى إذا كان
 خطابي قد أحدث مفعولا يسيرا ، فأننى لم أوله أهمية تذكر ،
 حتى أنني لم أتحدث عنه إلا لنفر قليل من الناس . . ولم
 أتحدث عنه إلى ديدرو نفسه البتة !



الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بى ان اقف قليلا إذ انتهت الكراسية السابقة . فمع الكراسية الحالية ، تبدأ اصول السلسلة الطويلة من المحن ، التى ألت بى .

لم يفتنى — أثناء ترددى على دارين من المع دور باريس — أن أعقد بعض صلات التعارف ، برغم قلة لباقتى . فتعرفت — فيمين تعرفت إليهم لدى السيدة دويان — إلى الأمير الشاب وريث إمارة (ساكس جوتا) ، وإلى مربية البارون دى تون ، كما تعرفت لدى السيد ديلا بويلينير إلى السيد دى سيجاي ، صديق البارون دى تون ، وكان معروفا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التى كانت لديه من ديوان « روسو » (١) . ولقد دعانا البارون — أقصد دعا السيد سيجاي وإيائى — إلى قضاء يوم أو اثنين في (فونتناى — سو — بوا) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، مذهبنا . . وفيما كنا نمر بفانسين ، شعرت بقلبي يتمزق ، إذ رأيت السجن . ولمح البارون آثار ذلك على وجهي . وعند العشاء ، تحدث الأمير عن سجن « ديدرو » ، فبعد البارون — ليحملنى على الكلام — إلى اتهام السجين بالنزق . . وهو عين ما بدر منى في غلظتى إذ أنبرت للدفاع عنه ! . ولقد اغتفر لى هذا الاندفاع ، باعتبارى رجلا أنساق لعاطفته

(١) الثامن جان بابتيست روسو .

نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة أخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير ، أحدهما يدعى «كليفيل» ، وهو رجل جم الذكاء ، كان في ذلك الحين قسا راعيا للأمير ، وغدا فيها بعد مربيا له ، خلفا للبارون . . أما الآخر ، فكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك .

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كليفيل رابطة لم تثبت أن تطورت إلى صداقة . أما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى ظفمه عليه الثراء فيما بعد . . ولقد دار الحديث عند القداء — في اليوم التالى — عن الموسيقى ، فأجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم فى موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة فى أولها ، وجد نكدة فى آخرها ، والتى سأكثر من الحديث عنها فيما بعد .

وإذ عدنا إلى باريس ، علمت بالنبا المفرح . . بأن ديدرو قد غادر « الزنانة » ، وأنه منح قلعة ومنتزه (فانسبن) كسجن له — اعتمادا على وعد شرف منه — وسمح له بأن يستقبل أصدقائه . ولكم شق على ألا أستطيع أن أهرع إليه فى التو ! . . فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السبدة دوبان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها . . وبعد ثلاثة أو أربعة

١٣١ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

قرون من التلهف ، طرت لأرتى بين نراعى صديقى ! ..
ويا لها من لحظة جلت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل
كان معه « داليمير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابيل »
.. وإذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أفعل سوى أن
قفزت ، وأن صرخت .. والصقت وجهى بوجهه ، وضمته
بشدة دون كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت أختنق
شوقا وطريا ! .. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقى ،
واستدار نحو رجل الكنيسة قائلا : « أترى يا سيدى كيف
يحبنى أصدقائى ؟ » .. وإذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، فأننى
لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى إذ أفكر
فيه أحيانا — بعد ذلك — أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن
يكون أول ما يخطر ببالى لو أننى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر ، فلقد تركت « الزنانة »
طابعا فظيحا على نفسه ، ومع أنه ارتاح إلى المقام فى القلعة ،
وغدا حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، إلا أنه
كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار
السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف أشد العطف على
الأمه — يقينا — فقد رأيت أننى ولا بد — كذلك — الشخص
الذى تسرى منه رؤيته ، أكثر من أى شىء آخر . وبالرغم من
وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت أتردد عليه
بعد ذلك — مرة كل يومين — وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى
معه فترة الاصيل .



وجاء الصيف في ذلك العام — ١٧٤٩ — شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين . ولما لم أكن في سعة تمكّني من استئجار عربة ، فقد اعتدت أن أنطلق في الساعة الثانية — من بعد الظهر — على قدمي ، إذا ما كنت وحيدا . . . وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت . . . وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارغة الأفنان ، على ما هو مألوف في تلك المنطقة ، فلم تكن تضيء على شيئا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت أرتمي على الأرض ، وقد أرهقني الحر والتعب ، وعجزت عن المضي . . . ولكي أخفف من سرعة انطلاقي ، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفي ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » : وفيما كنت أقرأ أبان سيري ، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لديجون ، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالي : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » .

وما أن قرأت هذه الكلمات ، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت إنسانا آخر . ومع أنني احتفظ بذكرى حية للأثر الذي أحدثه السؤال في نفسي ، إلا أن تفاصيل الواقعة غابت عن بالي مذ أودعتها إحدى رسائلي الأربع إلى السيد دي « ماليزيرب » . وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي ، والتي

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمي بديجون ، لأحسن رسالة تكتب في الموضوع الذي يطرحه للمسابقة .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث ١٣٣

تستحق الذكر . فهي حين تسعفنى لا تبضى فى ذلك إلا طالما كنت معتبدا عليها . وما ان أسكب ما استودعتها إياه على الورق ، حتى تتخلى عنى . . وإذا ما كتبت شيئا مرة ، فأنى لا أعود أنكره إطلاقا ! . . وتراهننى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت أعرف كثيرا من الأغانى عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكنى لم أكد أحقق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية فى ذاكرتى ، وما أرانى أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها ، من كل الأغانى التى كنت أحبها !

والذى أذكره بجلاء — فى هذه المناسبة — هو أننى عندما بلغت (مائتين) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت إليه بالسبب ، وقرأت عليه « مناجاة فابريشيوس » (١)، التى كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط . فمشجعتنى على أن انشر آرائى ، وأن أشارك فى المباراة . وقد كان هذا ! . . ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين . فلقد كان ما بقى من عمرى ومن تعاساتى

(١) Prosopopée de Fabricius . . وكان فابريشيوس تنحلا

من حكام الرومان ، وقد عرف بانتهاج البساطة فى مبادئه الخفية ، وبالفناء ، والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . واتخذ اسمه رمزا لثرح الذى يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم .

١٣٤ اعترافات جان چاء روسو - الجزء الثالث

نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (١) !

وتسامت مشاعري إلى مستوى أفكارى ، بسرعة تفوق التصور . فاذا بكل أهوائى التافهة تختنق فى فورة الحقيقة والحرية والفضيلة . . وأدعى من هذا إلى الدهشة ، أن هذه الفورة ظلت محتدمة فى فؤادى طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب أى بشر آخر !

واقبلت على العمل فى إعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجها فى كل مؤلفاتى الأخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التى لم يكن النوم يواتينى فيها بالليل . وكنت أستغرق فى التفكير وأنا فى فراشى مغضض العينين، وأروح أقلب عباراتى فى رأسى ، وأعاود تغليبها فى فناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها ، أودعتها ذاكرتى إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق . ولكن الوقت الذى كان يستغرقه نهوضى وارتداء ثيابى ، كان يضيقها على . . فإذا ما عكفت على ورقى ، لم يوافنى شيء مما نظمته فى بالى تقريبا.

(١) أضف « روسو » - فى رسالة الى « مالميزيرب » تفصيلات بديعة لهذه المناسبة ، اذ قال : « وشعرت بدوار طاع يستولى على رأسى ، يشبه نشوة السكران . . ويخفقان عنيف . . فلم أعد أملك أنفاسى وأنا أسير ، ومن ثم ارميت على إحدى أشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة فى هذا الاتفعال ، فلما ألفت تبينت أن صدر صدارتى كان مخضلا بالدموع ، دون أن أكون قد شعرت بأننى ذوقتها » .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٣٥

ورأيت أن أستخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فأسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى ، وكانت هى التى تأتى فى كل صباح لتوقد نارى وتؤدى الخدمات البسيطة التى احتاج إليها ، اقتصادا لأجر الخادم ، وعند وصولها ، كنت ألقى عليها من سريري ما أعدته فى الليل . وقد أدى هذا النظام — الذى اتبعته زمنا طويلا — إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان! . . حتى إذا فرغت من المقال ، عرضته على ديدرو ، الذى أبدى ارتياحا إليه ، وأشار إلى بعض تعديلات . على أن هذا العمل الأدبى الملىء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما ، فهو — دون كل ما انساب من قلمى — أضعفها فى الحجة ، وأفقرها إلى التناسب والتناسق . على أن من الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التى فطر المرء عليها !

وأرسلت هذا المقال ، دون أن أتحدث عنه إلى أحد ، اللهم إلا « جريم » — فيما أظن — إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز . وكان لديه معزف اتخذناه ملقئ يجمعنا ، فكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى ، أغنى الألحان الإيطالية وأغنى ملاحى الجندول ، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء ، أو — بالأحرى — من المساء إلى الصباح . وعندما كنت لا أوجد فى دار السيد دوبان ، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيد « جريم » . أو معه — على الأقل — سواء فى نزهة أو فى مسرح . وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدي ايتاليين » — الذى

١٣٦ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذي لم يكن « جريم »
 يحبه — وأصبحت أتردد معه على « الكوميدي فرانسيز » ،
 الذي كان مولعا به . وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتني
 بهذا الشاب ، حتى اننى أصبحت لا أطيق بعدا عنه ، وحتى ان
 العمة المسكينة^(١) غدت موضع إهمال منى ! .. اقصد اننى
 أقلت من زيارتى إياها ، إذ ان عاطفتى لم تهن لحظة واحدة
 خلال حياتى !

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ،
 إلى ان تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبة — التى
 ساورتني منذ وقت طويل — فى أن يكون لى ولتيريز مسكن
 واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد أفراد أسرتهما ، وفى
 الحاجة إلى المال لشراء الاثاث — بوجه خاص — جعلتني
 أعدل حتى ذلك لحين . ثم سنحت لى فرصة المحاولة ،
 فانتهرتها .. ذلك ان السيد دى فرانكويى والسيدة دوبان شعرا
 تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ،
 مبلغ غير كاف ، فرعنا من تلقاء نفسيهما مرتبى السنوى إلى
 خمسين « لوى » . وفضلا عن هذا ، فان السيدة دوبان لم
 تكذ تسمح بأننى كنت اسعى إلى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى
 .. ساعدتني ببعض نفحات من أجل هذا الغرض . وبالإضافة
 إلى الاثاث الذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لمنا شملنا ،
 واستأجرنا مسكنا صغيرا فى مبنى « اللانجدوك » ، بشوارع

(١) نكرم « روسو » ان هذا اللقب أطلقه اصداقوه على « تيريز » .

اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثالث ١٣٧

(جرينيل سانت اونوريه) ، لدى قوم طبيى السمعة جسدا ،
ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، واقمنا هناك فى امان وارثياح
سبع سنوات . . الى ان فزحت الى « الارميتاج » .



وكان والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل
الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل » (١)
الذى خلعه « جريم » بعد ذلك — على سبيل الدعابة — على
ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة ،
واقصد فى أدب الخطاب ، بل إنها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها
اللائق بالمجتمع الراقى ، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن
أطيعه . وكانت تقدم لابنتها من النصيح أسوأه ، وقد حاولت
أن تحملها على أن تخدمنى وتمكر بى ! . . وكانت تداهن
أصدقائى — كلا على حدة — وتحاول أن تتقرب إلى الواحد
منهم على حساب الآخر ، أو على حسابى أنا ! . . وفيها عدا
ذلك فانها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى أن تكون
كذلك . وكانت تتستر على أخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من
وراء ذلك . . هذه المرأة التى أغرقتها بعنابتى ورعايتى
وبالهدايا الصغيرة ، والتى كنت اتوق من قلبى إلى أن أحمل
نفسى على حبها ، كانت — بسبب استحالة نجاحى فى هذ

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتبل » ، ويعبر

الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم اثنين من أقدم المحاكم ،
أحدهما مدنية والأخرى جنائية .

١٣٨ اعترافات جان جلا روسو - الجزء الثالث

الصدد — السبب الأول للتعب الذى كنت أعانيه فى مسكنى الصغير . وفيها عدا هذا ، فان بوسعى أن أقول إننى تذوقت — خلال هذه السنوات الست أو السبع — أكل هاء عائلتى يسمح به الضعف البشرى !

كان قلب تيريزى قلب ملك ، وقد عززت حياتنا المشتركة حيناً ، فأخذنا نزداد إحساساً — يوماً بعد يوم — بأن كلا منا خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا أن توصف ، لكأنت بساطتها داعية للضحك ، سواء فى ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدتين ، حيث كنت أنفق — بعظمة — ثمانية أو عشرة « سو » فى إحدى الحانات .. أو عشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة .. فكأنت هذه تستخدم — بهذا الوضع — كمائدة ، وكنا نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة .. ومع أننا كنا فى الطابق الرابع ، إلا أنه كان فى وسعنا أن نطل على الطريق ، ونحن نتناول الطعام ، ترى منذ الذى يستطيع أن يصف ، بل منذ الذى يستطيع أن يشعر بمفاتيح هذه الوجبات التى كانت تتألف — فى مجموعها — من ريع رغيف من الخبز الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف « سيقية » (١) من النبيذ كنا نشربه معاً .. أيتها الصداقة ، والثقة ، والالفة ، وراحة البال .. ما الذ مذاقك ! . لقد كنا

(١) نصف « السيقية » يعادل جزءاً على ١٦ من الجالون .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٣٩

تمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل ، دون أن نفكر في شيء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه ! . . ولكن لنفدع هذه التفصيلات التي قد تبدو عقيمة أو مضحكة ، فلقد اعتدت أن أشعر — وأن أصرح — دائما ، بأن الهناء الحق لا توصف !

ولقد حظيت — في نفس تلك الفترة تقريبا — بمتعة أخرى ، كانت أكثر خشونة من هذه . . وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها . فلقد ذكرت أن « كلبفيل » — القس — كان لطيفا ، ولم تكن علاقتي به تقل توثقا عن علاقتي بجريم ، حتى أصبحنا متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتي . وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء ، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة ، والمداعبات الجرمانية من « جريم » الذي لم يكن بعد قد طلق العيب . . ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ مكانها . وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق افتراقا . وكان كلبفيل قد أثبت مسكنا لفتاة صغيرة ، لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده ! . . وفي ذات مساء ، كنا نلج أحد المقاهي ، وإذا بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها . فدعاهنا ببعض الفكاهات ، التي انتقم لنفسه منها بلباقة ، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء ، ثم راح يسخر منا بدوره . وبدأت لى الفتاة المسكينة حلوة السجيا ، مغرطة الدعة ، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها

— بقدر الإمكان — عجزت مكررة كانت برفقتها . واستخفنا الحديث والنبذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا . ولم يشأ كلبفيل الطبيب أن ينتقص من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التي لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكي ! . . . ولقد اعتاد «جريم» دائما أن يؤكد أنه لم يمسهها، وأنه ما أطل المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . وإذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة ، إذ أنه — قبل التحاقه بخدمة الكونت دي ميريز ، وأقامته في داره — أقام لدى فتيات من غانيات حي (سنان روش) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) — حيث كانت الفتاة تقيم — وأنا أشد استحياء من القديس « برىو » ، حين بارح المنزل الذى أسكر فيه . ولقد كنت أتمثل قصتي بجلاء ، وأنا أكتب قصته! . . . ولاحظت تيريز أن فى الأمر شيئا ، لا سيما وأننى كنت مرتبكا ، وكنت أبعدو ساخطا على نفسى . وقد تخلفت من العيب ، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز . وكلم أحسنت صنعا ، إذ أن « جريم » جاءها — فى الصباح التالي — متشفيا، وروى لها ذنبى فى مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن أن يذكرها به فى خبث وإغاضة . وكان هذا أشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى — إذ أثمنتته على سرى طواعية ، وفى غير تحفظ — أن اتوقع منه ألا يحملنى على أن أنسى يوما على هذه الثقة .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٤١

ابدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى ، كما شعرت بها فى هذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى ، فلم أنجس أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم ألمح خلاله أى أثر لسطط أو ضغينة !.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقال !.. على أن ثمة مثالا لذلك ، جديرا بالذكر ، يحضرنى الآن .. فلقد فكرت لها أن كلبفيل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمر (سلكس - جونا) . وكان القس - فى رأيها - رجلا ممتازا ، حتى أنها فى تخطيطها بين الأفكار المتباينة ، أخذت كلبفيل على أنه « البابا » . ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين أنبأتنى - ذات مرة - عند مودتى إلى المنزل ، بأن « البابا » قد حضر لزيارتي . واستدرجتها حتى أوضحت ، ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجريم ولبفيل ، الذى لصق به اسم « البابا » فيها بيننا .. كما اطلقنا على غانية شارع (ديه موانو) ، اسم « الماما جان » (١) ! .. وكان هذا مثار ضحك مز علينا أن نخذه ، حتى كدنا نخفق ! .. ان أولئك الذين جعلونى أقول - فى خطاب حلالهم أن ينسبوه إلى - إننى لم أضحك فى حياتى سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عنى فى هذه الفترة ، أو فى أيام صباى ، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا !

(١) Papesse .. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خرا من « الماما » !

من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العام التالي — سنة ١٧٥٠ — أن مقالى فاز بالجائزة في (ديجون) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه . فأيقظ هذا النبأ — من جديد — كل الأفكار التى كانت قد أوجت إلى به ، وبث فيها قوة جديدة ، وادى إلى أن تحركت — للمرة الاولى — رواسب البطولة والفضيلة التى كان أبى ووطنى وبلوتارخ قد أودعوها قلبى في طفولتى . فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجل من أن أكون حرا وفاضلا ، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأى العام ، وأن أكون مستقلا بذاتى . ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأى العام منعانى — بادئ الامر — من أن أمضى وفقا لهذه المبادئ ، ومن أن أخرج مجاة ، وعلائية ، على مادات وعرف القرن الذى أميش فيه . . إلا أننى منذ ذاك الحين عقدت عزمى ، ولم أرجئ تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يقدو موقفا .

وفىها كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان ، وقع حادث جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تيريز حبلى للمرة الثالثة . . وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكذبة لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقته بهم ، على ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين . . الدين القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شوهه البشر فى تظاهروهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس — بقوانينهم

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٤٣

الموضوعة — إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات .. فان فرض
المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو أنني كنت مخطئاً في استنتاجاتي ، لما كان ثمة ما هو
أدعى للدهشة من الطمأنينة ، التي أقبلت بها عليها .. ولو أنني
كنت من أولئك الناس ذوي المنبت الوضيع ، وذوي الأذان
المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوي النفوس التي لا ينبت
فيها أى إحساس صادق بالعدالة والإنسانية ، لكان جهود قلبي
ميسور الإدراك . ولكن ما أوتيت من حرارة القلب ، وإرهاق
الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذي كانت
تفرضه على علاقتي بهم ، وهذه اللوعات القاسية التي كنت
أعانيها إذا ما اضطرتت إلى قطع العلاقات .. وهذه النية الطيبة
التي فطرت عليها نحو أقراني، وحبى المتاجج لكل ما هو عظيم،
وما هو صادق ، وما هو جميل ، وما هو عدل .. وهذا الجزع
من السوء بكل أنواعه ، وهذا المعجز عن الكراهية والحق ، بل
ومن تمنيها .. وهذا الحنان ، وهذا الشعور الناعم الوثاب
الذي أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف ..
أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتألف في قلب واحد ،
مع الحرمان الذي يدوس — في غير ما تورع — أعذب الالتزامات
وأحلاها ؟ .. لا ! .. أنني لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل ،
فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكراً لصلات الرحم،
ولا كان أباً جاحداً ، لحظة واحدة في حياته ! .. ومن المحتمل
أن أكون قد أخطأت ، ولكني لم أكن قط قاسى القلب .. ولو
أننى شئت أن أفضى بحججى ، لتكلمت أكثر مما ينبغي . وبما

انها كانت من القوة بحيث أغوتنى ، فأننى أخشى أن تغوى كثيرين غيرى ، ولست أبغى أن أعرض الشبان — الذين قد يقرأون حديثى — لأن ينساقوا إلى الاساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فسأكتفى بأن أقول إن غلطتى كانت على هذا النسق : إننى إذ أسلمت اولادى إلى الدولة لتربيتهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، وإذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا أو مزارعين ، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة ، كنت أظننى أؤدى تصرفا يليق باب مواطن صالح ، وكنت أتمثل نفسى عضوا فى جمهورية أفلاطون . ولقد أشعرتنى حسرات قلبى — فى أكثر من مرة ، فيما بعد — أننى كنت مخطئا ، ولكن عطفى كان أبعد من أن يوحى إلى بنفسى الرأى ، ومن ثم فأننى كثيرا ما باركت السماء لأنها صانئتهم مما لقيه أبوه فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يتهدهم إذا ما اضطرتت إلى التخلّى عنهم . ولو أننى أسلمتهم إلى السيدة ديبيناي ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبنا — فيما بعد — فى أن تكفلاهم ، سواء بدافع من الصداقة ، أو من الكرم ، أو من الخوف آخر . . لو أننى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يغدون أكثر سعادة ، أو ينشأون رجالا أمناء محترمين ، على الأقل ؟ . . لست أدرى ، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الغدر بهما ! . . ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة ، أنهم لم يعرفوا أبويهم !

وهكذا أسلم ابنى الثالث إلى ملجأ اللقطاء ، كما كان شأن الطفلين السابقين . . وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ أننى

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٤٥

أوتيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجراء ملائما ، حكيا ، مشروعا إلى درجة أننى إذا كنت لم أفخر به علانية ، فأنما كنت أصدر فى ذلك عن شيء من مراعاة خاطر أهم . . على أننى أنبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتى بها . . قلته لديدرو ، ولجريم ، كما ذكرته — فيما بعد — للسيدة ديبيناى ، ثم للسيدة دى لوكسبورج بعد ذلك . . ولقد فعلت ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحرية ، دون أى اضطرار ، وكان بوسعى أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين . . إذ أن الأنسة «جوان»^(١) كانت أمينة ، كتومة جدا ، وكان بوسعى أن أطمئن إليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من أصدقائى ، الذى كنت أجد مصلحة فى أن أكشف له سرى ، هو الطبيب «ثييري» ، الذى عنى بعمتى المسكينة فى إحدى مرات الوضع ، عندما ساءت حالها . ومجمل القول اننى لم أحط تصرفى بشيء من الغموض ، لا لأننى لم أتعلم قط أن أكتُم شيئا عن أصدقائى فحسب ، وإنما لأننى لم أكن أرى — فى الواقع — أى ضرر ذلك . إذ أننى — إذا قدرنا كافة الاعتبارات — قد اخترت لأولادى الخير ، أو ما آمننت بأنه الخير . بل اننى كنت اتهمى — ولا أزال — لو أننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !



(١) الأنسة «جوان» هى القابلة أو المولدة التى كانت تعنى بتربيت عند

الوضع ، وتتكلل بإسلام الأطفال الى ملجأ اللقطاء .

وفي الوقت الذي كنت أسجل فيه اعترافاتي هذه ، كانت السيدة لوفاسير تحنو حنوى — من ناحيتها — ببدا أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا . وكنت قد قدمتها — هى وابنتها — إلى السيدة دويان التى أولتهما ألف آية من آيات الطببة ، بدافع من صداقتها لى . ولقد أطلعها الام على سر ابنتها . فما كان من السيدة دويان الطيبة ، السخية ، التى لم تطلع قط على مدى حرصى على أن أوفر لها كل أسباب العيش — برغم تواضع مواردى — إلا أن كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عنى هذه سره ، بأمر من أمها ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعترف لى به إلا فى « الأرميتاج » ، وبعد أن كشفت لى عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل أن للسيدة دويان علما بشيء ، إذ أنها لم تبد إطلاقا أية إشارة . . كما أننى أجهل ما إذا كانت السيدة دى شينونسو — زوجة ابنها — على علم بالأمر . هى الأخرى . على أن السيدة دى فرانكوى — زوجة ابن زوجها — أحاطت به ، ولم تستطع أن تمسك لسانها ، فتحدثت إلى عنه فى العام التالى ، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على أن أكتب لها — عن هذا الموضوع — رسالة توجد فى أضابيرى ، وقد عرضت فيها من حججى ما كان بوسعى أن أذكره دون أن اتحم السيدة لوفاسير وأسرتها ، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم ، وقد تكتمتها (١) .

(١) تنوّد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكواسة التاسعة .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٤٧

افنى لأطمئن إلى كتمان السيدة دويان للأمر ، وإلى مسودة السيدة دى شينونسو ، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكويى ، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سرى مدويا ، بوقت طويل . ومن ثم فانه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين أمضيت إليهم به بالذات ! .. والواقع ان هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بينى وبينهم الصلات . وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم فى الواقع ، دون رغبة منى فى أن أعنى نفسى من اللوم الذى استحقه ، بل اننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقى ، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم . إن ذنبى لعظيم ، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى ، بيد أن الرغبة فى الايذاء لم تداخل فؤادى أبدا ، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث بافتناع عن أطفال لم يرهم اطلاقا .. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات ، ونشر الأسرار التى سكبت فى صدورنا ، والخط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا .. هذا كلها ليست أخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخية !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافى ، لا تبريرات تصرفاتى . ومن ثم فاننى أقف - فى هذا الموضوع - عند هذا الحد . ومن واجبى أن أكون صادقا ، وللقارئ أن يكون عادلا . ولن أطلبه قط بأكثر من هذا .



وأدى زواج السيد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها .

١٤٨ اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثالث

فقد كانت شابة مغرطة اللطف ، بدا أنها آثرتني من بين الكلبة الذين كانوا في خدمة السيد دوبان . . وكانت الانسة الوحيدة للسيدة فيكونتة دى بروشيشوار ، الصديقة الحبيبة للكونت دى فرييز ، وبالتالي لجريم الذى كان ملحقا بخدمته . على أننى كنت الشخص الذى قدمه إلى ابنته وأدخله دارها ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق ، ومن ثم فإن هذه الصلة لم تدم طويلا . أما « جريم » - الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ ذلك الحين ، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد آثر الأم ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تتشد أصدقاء تثق بهم وترتاح إليهم ، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء ! . . وإذ لم تجد السيدة دوبان فى السيدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لبن ، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة . فاثرت السيدة دى شينونسو - التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا - أن تنبذ ملامى المجتمع ، وأن تبقى وحيدة - تقريبا - فى مخدعها ، على أن تحتل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبنى إلى التمساء . ولقد وجدت فيها عقلا مغكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة ، وإن كان فى بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة . وكان حديثها جـد

(١) يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دى فرييز من علاقته بالفيكونتة دى ووشيشوار ، ولكنها تسبب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل أبائنا الحقيقي ، الذى قدم اليها كصديق !

جذاب لى . إذ أنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدبر من عهد قريب ، ومع عمقه هذا ، فانها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها ! . وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار ، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا ، لو أنها أقامت مودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسهرة باهتة ، في جبال نادر ، مما كان يذكرنى بماما البائسة في أوج شبابها ، فكان يهيج فؤادى . بيد أن المبادئ القوية التي كنت قد رسمتها لنفسى — من عهد قريب — وآليت أن أتبعها مهما تكبدت ، جعلتنى في أمان منها ومن مفاتنها ! . . . ولقد اعتدت — طيلة فصل الصيف بأكمله — أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات في عزلة ، القتها الحساب في درس جدى ، وأضايقتها بأرقاى التي لا تنتهى ، دون أن أقول لها كلمة غزا واحدة ، ودون أن أرمقها بنظرة ! . . . ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت قمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد . . . ولكن القدر كان قد كتب على ألا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة في حياتى ، وأن تكون أول وآخر زفرات قلبى وقفنا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما — مذ أقمت في دار السيدة دوبان — راضيا بنفسي ، لا أبدى أية رغبة في أن يتحسن . ولقد جاءت الزيادة التي أضافتها السيدة إلى مرتبى — بالاشتراك مع السيد دى فرانكوى — صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب . . . وفي هذا العام ، فكر السيد دى فرانكوى — الذي كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم — في أن يضعنى في مركز أعلى قبدر

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

١٥٠

وأكثر ثباتا . ولقد كان محصلا عاما لمالية فرنسا ، وإذ كان السيد دودوييه — أمين خزانته — مكتهلا وغنيا ، وراغبا في أن يعتزل العمل ، فقد عرض على السيد دى فرانكويى هذا المنصب . . ولكى أعد نفسى لتولييه ، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد دودوييه لالتقى عنه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوييه — الذى بدا لى راغبا فى أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر — لم يكن يلقتنى أصول المهنة عن طيب خاطر ، فأننى رحت ألم بالمعلومات التى كنت محتاجا إليها ، فى ببطء وسوء استيعاب . . ولم ينفذ إلى راسى قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على أننى وإن لم أستوعب دقائق المهنة ، لم أتوان قط من أن أمضى مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة . بل أننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة ، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت إيصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من أن يؤهلنى لهذه المهنة ، إلا أن تقدم سننى جعلنى حكيما ، فمعدت العزم على أن اتغلب على نفورى من أن أنصرف بكل نفسى إلى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء — فى الوقت الذى بدأت آلف عملى فيه — أن يقوم السيد دى فرانكويى برحلة قصيرة ، ظلت خلالها الموكل الوحيد بخزائنه ، التى لم يكن يودعها — فى ذلك الوقت — سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات . فاذا القلق وانشغال البال ، اللذان سببتهما هذه الأمانة ، يقنعاننى بأننى لم أخلق لأكون صرافا . ولست أرتاب فى أن اللهفة التى رحت أرتقب بها عودة السيد

اعترافات جان چالده روسو - الجزء الثالث ١٥١

دى فرانكويى قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجزء الاول من اعترافاتى إننى كنت موشكا على الموت عندما ولدت . وكان ثمة عيب فى تكوين المئانة ، ادى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خلال سننى عمرى الاولى ، فكانت عمتى «سوزان» — التى تولت العناية بى — تلقى غناء لا يمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنها افلحت فى ذلك ، واستطاعت بنيتى القوية أن تتغلب فى النهاية ، فتحسننت صحتى كثيرا خلال صباى . . وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى إلى التبول ، الامر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة . . فيما عدا ذلك فأننى بلغت الثلاثين من عمرى ، دون أن أحس بما كان فى جسمى من عيب سابق .

وأصابتنى أولى العلل عند وصولى إلى البنديقية . فان غناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيت به ، جلبا على رغبة مستمرة فى التبول ، وأوجاعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقدم الشتاء . ولقد أيقنت بعد زيارتى للموس^(١) أننى ميت ، ولكننى — مع ذلك — لم أعان أقل تعب . . وبعد أن أرهقت نفسى بالوهم — أكثر منى بالآلام جسدية — بسبب «جولييتا» ، إذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم . وظللت هكذا إلى ما بعد سجن نيدرو ، إذ أن اشتداد سخونة دمى — خلال رحلاتى إلى فانسبن فى الحر

(١) وردت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من هذا الجزء .

١٥٢ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

القائظ الذى كان سائدا إذ ذاك — أدى إلى ألم عنيف فى الكليتين،
لم أستعد — مذ واتانى — صحتى الأولى !

وفى الفترة التى أتحدث عنها ، أدى إسرائى فى إرهاق نفسى
بالعمل البغيض فى تلك الخزانة اللعينة ، إلى أن اضمحلت
صحتى أكثر من ذى قبل ، ومكثت فى فراشى خمسة أسابيع
أو ستة ، فى أشد اغتمام يمكن تصوره . وأوقدت السيدة
دوبان لعيادتى «موران» ، الذى كان ذائع الصيت، والذى سبب
لى — برغم مهارته ورقة لمساته — أوجاعا لا تخطر ببال ، ولم
يستطع قط أن يصل إلى موطن علتى ، فنصحنى بأن الجأ إلى
«داران» ، الذى استطاع بمجساته — وكانت أكثر مرونة — أن
يخفف عنى بعض الأوجاع . على أن موران — حين أنبأ السيدة
دوبان بحالى — صارحها بأننى لن أكون على قيد الحياة بعد
سنة أشهر . وحملى هذا الحديث — الذى نهمى إالى — على أن
أفكر جديا فى حالى ، وفى حماقة التضحية براحة جسمى وبالى
فى الأيام القلائل التى تبقت لى فى الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة
لم أكن أشعر نحوها بأى ميل ! .. ومن ناحية أخرى ، كيف
كان لى أن أوفق بين المبادئ القاسية التى اتخذتها لنفسى وبين
منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا ؟ .. ألم يكن من المجافاة
للذوق أن أدعو — وأنا المحصل العام للمالية — إلى التجرد من
المصلحة الذاتية ، وإلى الفقر ؟

واشدت تخمر هذه الآراء فى رأسى باشتداد الحمى ، وراحت
تتماسك بقوة ، حتى أن شيئا لم يقو — منذ ذاك الحين — على
تبديدها ، فوطدت عزمى — خلال فترة نقاهتى — على تنفيذ

ما استقر عليه رأيي خلال بحران الحمى ! .. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة ، معترضا أن اقضى في الاستقلال والفقر ، الفترة القصيرة التي تبقت لى في الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأى العام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل البتة برأى الناس . وكانت العقبات التي اضطرت لمغالبتها ، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها ، فوق كل تصور . وقد وفقت بقدر المستطاع ، بل وأكثر مما كنت أرجو ، ولو أنني نجحت في أن ادفع عنى ريقة الصداقة ، بقدر توفيقى في التحرر من ريقة الرأى العام ، لبلغت غاية ماأرى ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خُطرت لمخلوق فنان ، وأدعها — على الأقل — للفضيلة .. على أنني — إذا رحت اتخط تحت أقدام الأحكام الخرفاء التي تصدر عن طليع الأدعياء الذين يسمون العظماء ، والذين يسمون الحكماء — اسلم نفسى وأتقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء ، والذين كانوا يغارون من أن يرونى أشق وحدى طريقا جديدة . وأنا أبدو جد منهمك في إسعاد نفسى ، فلم يعودوا يفكرون — في الواقع — إلا في أن يجعلونى مثارا للضحك ، وشرعوا في العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى ! .. كان تغير شخصيتى ، الذي بدأ في هذه الفترة — وليست شهرتى الأدبية — هو الذى أثار غيبتهم منى .. ولعلمهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى إن لمعت في فن الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى أن ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضائعهم ! .. لقد فطرت على الود ، فكانت طباعى السلسة الوديعه تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوبا

من كل أولئك الذين عرفوني ، طالما كنت أعيش مجهولا لدى
الرأى العام ، فلم يكن لى عدو واحد . . على أن اسمى لم يكد
يلمع ، حتى أصبحت بلا أصدقاء ! . . وكانت هذه نكبة كبرى ،
ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم
أصدقاء ، فى حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التى
يتيحها لهم هذا الاسم ، إلا لى يجرونى إلى الهلاك ! . . ولسوف
تتكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على
أننى سأكتفى - فى الوقت الحاضر - بأن أثير إلى أصلها ،
وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها !



كان لا بد لى ، فى الاستقلال الذى أردت أن احيا فيه ،
من أن أحصل على القوت . وصور لى خيالى وسيلة جد
سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو أن عملا
أكثر ثباتا من هذا كان يؤدى إلى الغاية ذاتها ، لأقدمت عليه .
ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما أنها كانت الوحيدة
الكفيلة بأن تهيب لى قوتى من يوم إلى آخر ، دون أن تقتضى
خضوعا أو تبعية لأحد . ومن ثم فقد قنعت بها . . واعتقدا
منى بأننى لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل ، خفقت
صوت غرورى ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال ، إلى
ناسخ موسيقى ! . . وظننت أننى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار ،
فلم يداخلنى ندم يذكر ، حتى أننى لم أتخل عن هذه المهنة إلا
بحكم الظروف القاهرة ، لأعود فاحترقها بمجرد أن وسعنى ذلك .
ولقد أدى نجاح مقالى الاول إلى زيادة تيسير تحقيق هذا

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٥٥

القرار . وقد تكلل ديدرو بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة .
وقد كتب لى — وأنا طريح الفراش — رسالة أعلنتى فيها بنشر
المقال وبنتيجة ذلك . فقال : « لقد حظى بكل إطراء .. وما كان
لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . ولقد منحنى هذا التحبيس
— الذى أولاه الراى العام عن رضى لكاتب مغمور — اول اطمئنان
حقيقى إلى كفايتى التى كنت فى ريب منها قبل ذلك ، برغم
مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى
ان اظفر به من هذه الكفاءة ، بالنسبة إلى القرار الذى كنت اهم
بتنفيذه ، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية ، لن
يعانى الحاجة إلى العمل إطلاقا !

وما ان استقر رأى وتوطد عزمى ، حتى كتبت إلى السيد
دى فرانكوى أنبئه بذلك، وأشكر له — والسيدة دويان كذلك -
كل أنعمهما ، سائلا إياهما أن يعهدا إلى بما يرغبان فى نسخه
ولم يفقه فرانكوى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن أننى مازلت
فى بحران الحمى ، فهرع إلى دارى ، ولكنه وجد أن رأى كان
قد استقر تماما ، إلى درجة أنه لم يستطع أن يزعزعنى عنه ..
وذهب ثائبا السيدة دويان والناس كلهم بأننى قد اختبلت ،
فتركه يقول ما شاء ، ومضيت فى طريقى . وبدأت إصلاح
نفسى بلبسى ، فتخلت عن الزوائد المطرزة بالقصب ، وعن
الجوارب البيضاء ، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر
المستعار ، وطرحت عنى سيفى ، وبعثت ساعتى ، وهتفت
لنفسى فى غبطة تفوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى
حاجة إلى تعرف كم الساعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكوى

١٥٦ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

بالتريث فترة طويلة ، قبل أن يتصرف بشأن خزانته ، حتى إذا رأى — فى النهاية — أننى مصر على قرارى ، عين السيد داليار ، الذى كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشيونوسو فى صفهه ، والذى كان معروفا فى ميدان فلاحه البساتين بكتابه عن « الزهور الباريسية » (١) .

ومما خفف من عنت انقلابى التقشفى ، أننى لم أطبق الزهد — فى البداية — على ملابسى الداخلية المتبقية مما كان لدى فى (البندقية) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطرارى إلى أن أتخذها مظهرا للنظافة، إذا بى أجعلها موضع بذخ وترف ، الأمر الذى لم يلبث أن أبهظنى . ولقد تكرم على شخص ما فخلصنى من هذه الريقة . ففى أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخادمت فى قداس الغروب، بينما كنت فى « حفلة موسيقية روحية » (٢) أغتصب باب غرفة فى أعلى الدار، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله . . وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينما اثنان وأربعون قميصا لى من أبدع الأقمشة ، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابى الداخلية . ومما

(١) أضاف « روسو » الى هذا قوله : « لست أشك اطلاقا فى أن فرانكوى وخلصاه يرددون رواية منافضة لهذه ، ولكنى استشهد بما خاله فرانكوى — اذ ذاك — وما ظل يردده للملا وقتا طويلا بعد ذلك ، الى أن تكونت المؤامرة . ولا بد أن خوى الادراك السليم والامم الطيبة ، لا يزالون يذكرون قوله » .

(٢) وهى حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كتعود من الرياضة الروحية .

ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار — في تلك الفترة — حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت تيريز وإيلى في أخيهما ، الذى عرف بأنه امرؤ سوء . . وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية ، ولكنه تأكد بأدلة كثيرة عززته لدينا ، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق ، خشية أن أكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك فى دارى ، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى ، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحلت أناشدها أكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا . ولقد أبرأتى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية ، تتمشى مع بقية ملابسى .

وإذ استكملت انقلابى الإصلاحى بهذا الشكل ، لم بعد لى من هم سوى أن أدعمه وأعززه ، بالعمل على أن أجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس . . وكل ما كان يوسع أن يحولنى — بدافع من الخوف أو من اللوم — عن كل ما كان فى حد ذاته طيبا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التى أحدثها مقالى ، أثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكثفى من أن أبدا مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقتنى عن أن أنجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت قمينا بأحصل عليه فى ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحت السيئة . فان مرضى الأخير خلف معقبات منعتنى من استعيد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين

١٥٨ اعترافات جان جاله روسو - الجزء الثالث

أسلمت نفسي إلى رعايتهم ، الحقوا بى من الضرر فوق ما الحقه
 المرضى . فلتقد سعت بالتوالى إلى موران ، فدوران ،
 مهيلىتيوس ، فبالوان ، فثيىرى . . وكانوا جميعا من الأساتذة ،
 وكلهم من أصدقائى ، وقد عالجنى كل منهم على طريقته دون أن
 يخفف عنى شيئا ، بل أنهم أضعفونى كثيرا . وكنت كلما حملت
 نفسى على اتباع إرشاداتهم ، ازددت شحوبا ، وهزالا ،
 وضعفا . وأخذ خيالى — الذى أزعجوه — يقيس حالى بهدى
 بفعل عقايرهم ، فلم يعد يصور لى سوى سلسلة متتابعة
 من الآلام ، التى تسبق الموت ، ومن احتباس البول ،
 والحصباء ، وأحجار القبر ! . . كانت كل ألوان العلاج التى تخفف
 عن الغير — من مياه طبية ، وحمامات ، وحجامة — لا تزيد
 أوجاعى إلا استفحالا . وإذ وجدت أن مجسات داران — وهى
 الوحيدة التى أدت إلى بعض النتائج ، وجعلتنى أعتقد أن
 لا سبيل لى إلى الحياة بدونها — لم تكن تهين لى ، برغم ذلك ،
 سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم
 فى اقتناء كمية هائلة من المجسات تكنينى طيلة العمر ، ولو فارق
 داران الحياة ! . . ولا بد أننى أنفقت خمسين « لوى » على
 الأقل ، خلال السنوات الثمانى أو العشر التى استخدمت فيها
 هذه المجسات دون انقطاع ! . . ومن اليسير تبين أن علاجى
 باهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلنى عن العمل ،
 وأن المرء إذا ما كان مشرعا على الموت ، لا يشعر برغبة
 ملهونة فى كسب خبزه اليومى !



اعترافات جان چال روسو - الجزء الثالث ١٥٩

وكانت الشواغل الأدبية ملهأة أخرى ، لا تقل عن سابقتها
عدوانا على عملي اليومي . فما هو أن نشر مقالتي ، حتى انقضى
على حماة الأدب ، وكأنهم عصابة جمعت صفوفها . وغازني أن
أجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار (١) ، يحاولون
أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالامر ، فقد
امتشقت قلبي ، وعالجت فريقتا منهم بطريقة لم تدع ضحكات
في صفوفهم ! . . وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلبي ، سيد
من (نانسي) يدعى السيد جوتييه ، فقد أهين بغلظة في رسالة
إلى « جريم » . أما الثاني ، فكان الملك « ستانيسلاس » (٢)
نفسه ، الذي لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدي . وقد
اضطرنى الشرف الذي أضفاه علي ، إلى أن أبدل لهجتي في الرأ
عليه ، فاتخذت لهجة أكثر وقارا ، وإن لم تكن أثقل شدة .
فمكنت رسالته تماها ، دون أن أغض من اجترام المؤلف . ولما
عرفت أن جيزويتيا يدعى الأب « مينو » كان ذا يد في الموضوع
فاعتمدت على فطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب ،
وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية ،
فكتشفت — في طريقي — عن خطأ تاريخي كنت أعتقد أنه

(١) السيد « جس » أهدى شخصيات مسرحية مولير « طبيب الغرام » وقد
استعار « روسو » هذا الاسم ليرمز الى المنحامل الذي تهميه المصلحة
الشخصية عن الحق .

(٢) الملك ستانيسلاس الاول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ الى
سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثاني ، آخر ملوك بولندا ، وقد عاش
بين سنتي ١٧٢٢ و ١٧٦٨ ، والغالب أن « روسو » قصد أولهما .

١٦٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

لا يصدر إلا عن قلم قداسته . وهذا المقال — الذى كان أقل من سواء إثارة للضجيج لسبب ما — يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأى العام كيف أن فى وسع فرد معين أن يزود عن قضية الحق ، ضد عاهل ذى سلطان . وكان من العسير أن اتخذ لهجة أبيه ومحترمة — فى الوقت ذاته — تفوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا إذ قدر لى أن أنازل غريبا كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبدية له دون ما تملق . ولقد ظن أصدقائى — الذين انزعجوا من أجلى — أنهم لن يلبثوا أن يرونى فى « الباستيل » ، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة . . . وكنت محقا . فقد قال هذا الأمير الطيب ، بعد أن اطلع على ردى : « لقد تلطيت جزائى ، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك » . ومن ذلك الحين ، تلطيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم — التى سأضطر إلى ذكر بعضها — وانتشر مقالى فى فرنسا وأوربا فى هدوء ، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم !

وصادفت — بعد ذلك بقليل — غريبا آخر لم أكن أتوقعه هو السيد « بورد » الذى كنت أعرفه فى (ليون) ، والذى أولانى — قبل عشر سنوات — كثيرا من الود ، وأدى لى عدة خدمات ، ولم أكن قد نسيت ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما أننى لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتى، إذ عازتني الفرصة المواتية لأبعث بها إليه — وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى — ولكن فى أدب وأمانة — فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد إلى الهجوم

بإصرار ، غافسح بذلك المجال إلى رد مفحم ، لم ينبس بعده بكلمة (١) ، ولكنه صار أشد أعدائي ضراوة ، وانتهز وقت محنتي ليوجه إلى شتائم مقدعة ، كما رحل إلى لندن خصيصا لكي يسعى إلى إيذائي !

ولقد شغلتنى هذه المجادلات القلمية كل انشغال . إذ بددت كثيرا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ ، وعاشت تقدمي في طلب الحقيقة ، وحدث من الكسب الذي كان يدخل جيبى . وكان « بيسو » - ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين - لا يمنحني دائما سوى مبالغ زهيدة جدا في مقابل كتيباتي . وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة . ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحدا عن رسالتي الأولى ، إذ أعطاه ديدرو إياها دون مقابل . وكان لا بد من أن انتظر طويلا ، وأن انتزع منه القليل - الذي كان وجود به - « سو » إثر « سو » . وفي الوقت ذاته ، لم تكن سوقى في النسخ رائجة ، فقد كنت مشغولا بهنتين ، وهذه هى الوسيلة لكى أسيء أداء كل منها . . . ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى ، وقد تمثل هذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذى كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه . . ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى ، جعلني قبلة الأنظار . إذ أثارت المكانة التى احتلتها فضول الناس ، وود

(١) يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا ، إذ أنه لم يوجه إلى « بورد » -

سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « في غوائد العلوم » . ثم يرد الملاحظ على مقال ثان بنفس الكاتب في الموضوع ذاته .

الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا .. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت أنشدها مستحيلة ، إذ لم تعد حجرتى تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجى إلى موائدهن .. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتى .. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى ألف عذو — بسبب الرفض — كانت رغبتي فى مجاملة الغير نستعبدنى ، ولم أعد أحظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول!



وادركت إذ ذاك أن العيش فى فقر وحسرة ، ليس دائما بالسهولة التى يتصورها المرء . فلقد شئت أن أعبش على مهنتى ، ولكن الجمهور لم يشأ ! .. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، ناذا الهدايا — من بشخصه (١) . ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا ، ولا رايت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا ، كبرها وصغيرها ، دون ما استثناء لإرضاء أحد ! .. ولم يؤد كل هذا

(١) بوليشينيل : شخصية وردت فى خرافات (نابولى) التدبئة ، مرتدى

ساحبها قمعة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف ، وله انف كمنقار الدجاجة ، وصوت أجش حاد ينطلق فى خفة (أخف) وهو رجل

شرس ، صاحب ، عبيد لا مفاكس

إلا إلى اجتذاب واهبى الهدايا ، الذين كانوا يطعمون في أن يحفلوا بفخر التغلب على صدودى ، وأن يدينونى بفضلهم بالرغم منى . وكمن من امرىء كان يضمن على بـ « ايكو » واحد — لو أننى طلبته — ولكنه راح يضايقنى بعطاياه دون انقطاع ، وهو يتهمنى بالغلطسة والكبر ، ليثأر لنفسه من رضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذى كنت قد اتخذته ، والنهج الذى رغبت فى انتهاجه ، لم يصادفها هوى لدى السيدة لوفيسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها . ومن ثم فإن « الدادتين » (١) — كما اعتاد جوفكور أن يسميهما — لم تكونا حازمتين دائماً مثلئى فى رفض الهدايا ، من ناحيتهما ، ومع أن كثيراً من الأشياء كانت توارى عنى ، إلا أننى رأيت ما كان كافياً لأن يقنعنى بأننى لم أر كل شيء ! . . وقد عذبنى هذا ، لا خشية أن اتهم بالتواطؤ معها — وهو ما نبأت بأننى ملاقيه عما قريب — وإنما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى ! . . ولقد رجوت ، وتوسلت ، وغضبت . . دون جدوى ! . . ولقد صورتنى الأم فى صورة المتنمر الأبدى التائب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مشاكس شرس . . وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائى . . كان كل شيء فى بيتى محوطاً بالغموض والأسرار ،

(١) الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أدق من « مربية » فى أداء المعنى

ولكنى — انتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع — لم أعد أجرو
على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا
الازعاج يتطلب حزمًا لم أكن أملكه ، إذ أنني كنت أعرف كيف
أصيح ، ولكننى كنت لا أدري كيف أقرن الصياح بالعمل . .
فتركت أصيح ، وظل كل شيء ماضيًا فى مجراه ؟

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات اليومية التى
كنت غريسة لها ، جعلت — فى النهاية — مسكنى ومقامى فى
باريس من أبغض الأمور . وكنت إذا ما سمحت لى صحتى
بالخروج ، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء
معارفى ، أتمشى وحيداً ، وأنا أحلم بخطى العظيمة فى الحباة .
وكنت أسطر بعض الخواطر ، مستعيناً بمفكرة بيضاء وقلم من
الرصاص اعتدت أن أحتفظ بها فى جيبى . وهكذا دفعت بى
المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسى ، إلى مهنة الأدب
نهائياً ، فقد رحت ألوذ بها فراراً من تلك المضايقات . وهذا هو
السّر فى أننى بثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين
دفعانى إلى أن أشغل نفسى بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك . . فأننى حين أقحمت —
بالرغم منى — فى المجتمع ، دون أن أوتى طباعه . أو أن أكون
على استعداد لأن أكتسبها، قررت أن اتخذ لنفسى طباعاً خاصة
تغنينى . وإذا كانت جماقتى وحياتى الماضى — اللذين عجزت
عن مغالبتها — صادرين أصلاً عن الخوف من أن تعوزنى آداب
اللياقة ، فقد رأيت — لكى أشجع نفسى — أن أدوس تلك الآداب
تحت قدمى . وأحالنى الحياء إلى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث . ١٦٥

على أن أزدري آداب اللياقة التى لم أتعلم كيف أمارسها . ومن الصحيح أن هذه الغلطة تمشت مع مبادئ الجديدة ، فإذا بها تكتسب سموا فى عقلى ، وتتخذ مظهر الجراءة المنبثقة عن الفضيلة .. وأستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل الجليل ، استطاعت أن تصمد خيرا — ولأمد أطول — مما كان مرتقبا ، بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتى إلى هذا الحد، ومع ذلك فاننى كنت أسوء دائما الاحتفاظ بشخصيتى ، فيها بينى وبين نفسى — بوجه خاص — بالرغم مما ذاع عنى فى المجتمع من نفور من البشر ، أوحى به مظهرى الخارجى وبعض الكلمات التى تنم عن ذلك !.. وإذ راح أصدقائى ومعارفى يقدرون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، وإذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العالة ، فاننى لم أكن أملك قط أن أقول كلمة مجاملة واحدة ، لآى امرئ كان !



وادت قصة « خراف القرية » إلى تالقى فى المجتمع . فلم يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا . وارتبط تاريخ هذه القصة — التى تمثّل فترة من حياتى — بعلاقات كنت قد أنشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفصيلات أرى واجبا على أن أتناولها ، لكى تفهم القصة حق الفهم .

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد اننى لم أصطف منهم سوى صديقين ، هما « ديدرو » و « جريم » . ونظرا لما أوتيت من رغبة فى أن أجمع بين كل أولئك الأعزاء لدى ، فإن صداقتى

الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من أن يصبح كل منهما صديقا حيويا للآخر ، إذ أننى جمعتهم معا ، فإذا بهما بنسجمان ، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بى أنا . وكان لديدرو معارف لا حصر لهم ، أما « جريم » ، فقد كان بشيئى المعارف ، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمع فى أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . فانتصت له صداقة ديدرو ، وصداقة جوفكور .. واصطحبته إلى دار السبدة دى شينونسو ، ودار السبدة ديبيناي ، ودار البارون دولباخ ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا ! .. وغدا كل أصدقائى أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة ، ولكن احدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! .. وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان جريم يقيم فى بيت الكونت دى غريبز ، فانه كان بدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكننى لم ألتق قط أى دليل على الود أو اللطف من الكونت دى غريبز ، أو الكونت دى شومبيرج — قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم — أو من أى شخص آخر ، ذكرنا كان أو أنثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة ، عن طريق هذين السيدين . وكان الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى أثبت أنه صديق لى ، وإن كان صديقا له ، والذى اعتاد أن يقدم كيس نقوده لى — إذا دعت الحاجة — فى كرم غير مألوف . على أننى كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميل

إليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالركة واللياقة أسداه إلى في مناسبة طفيفه القيمة ، ولكنى لم أنسها البتة .

كان هذا الاب راينال صديقا حميما بالتأكد . ولقد تسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى أنا بصددده تقريبا ، وفى أمر يتعلق بجريم ذاته ، إذ كان على علاقة وثيقة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالانسة « غيل » ، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وإن ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المقيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا اليها، حتى أنه فكر فى الموت . وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظما ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع ، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا ، ولو بالإشارة ! .. وكان — إلى جانب ذلك — غير منفعل، ولا متألم، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال ، وكأنه ميت ! . وتشاطرت والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب — نظرا لتفوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن — يسهر الليالى ، بينما كنت أعنى به فى النهار . وكنا لا نفارقه إطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فريز ، فأحضر له « سبنك » الذى قال — بعد أن فحصه فحصا دقيقا — ألا علة هناك ، ولم يصف له دواء . وكان إشفافى على صديقى قد حملنى على أن أراقب بآتيعام محيا الطبيب ، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان



و نه از نفارقه اطلاق ، فلا پیرجه ای منا حتی یصل الاخر ۳۳

ومع ذلك نعان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون أن يتناول حساء أو أى شئ ، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزنده فى لبقة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف حياته العادية ، دون أن يحدثنى قط ، أو يحدث الراهب — فيما علمت — أو يحدث أى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى أوليناها إياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، أن تؤدى قسوة احدى غائيات الأوبرا ، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس !.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته هذه الفكرة مرموقا ، ومكرما لدى المجتمع الراقى . وبهذا تباعد عنى ، أنا الذى لم أكن بالنسبة له أكثر من تكاة أو أداة!.. ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عنى ، فأحزننى ذلك : إذ أن كل المشاعر المضطربة التى كان يتظاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتنى نحوه ، دون أن أتناظر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقد قلت له يوما : « انك لتهملنى يا جريم ، وإنى لاغفر لك ذلك . فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تتبين أنه فارغ . فأنى أأمل أن تعود إلى ، ولسوف تجدنى دواما كما عهدتنى . لها فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف أدعك تفعل

ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى إننى كنت على حنى ودبر خطته على هذا النسق ، وانطلق فى طريقه إلى نهاية الشوط ، حتى أننى لم أعمد أراه إلا مع الاصدقاء المشتركين
لكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقانا الرئيسى ، قبل أن يرتبط بمدام ديبيناي ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامى وقد أوتى ثروة عظيمة جدا ، فاستغلها استغلالا نبيلًا ، وفتح داره لأهل الادب والفن ، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم . وإذا كان على علاقته بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بى ، قبل أن يغدو اسماً معروفاً . وصدنى نفور طبيعى عن أن أستجيب لتقربه فترة طويلة . وقد سألنى عن السبب ذات يوم ، فقلت له : « إنك واسع الثراء » . ولكنه ألح فى طلب ودى ، واستطاع أن يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى الكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللفظ ، وما وجدتنى يوما أتخلى عن هذه الشيمة !



ومن حالات التعارف التى تحولت إلى صداقة بمجرد أن وجدت من حقى أن أنشدها ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد انقضت عدة سنوات مذكراته - للمرة الأولى - فى (لأشيفريت)، لدى السيدة ديبيناي ، التى كان على صلات طيبة بها . ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .

اعترافات جان جالد روسو - الجزء الثالث ١٧١

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناي قد حدثته عنى وعن أوبراي « عرائس الشعر اللطاف » . وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة ، أسبى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقد مال إلى ، ودعانى إلى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم (١) ، الذى عززته المعرفة ، فإن حياى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا؛ حتى لم يبق ثمة ما يقربنى إليه سوى لطفه وحفاوته . على أننى تشجعت بنجاحى الأول (٢) وبما بلغنى من إطرائه هذا النجاح ، فممت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلنى أعتر به دائما ، وإليها — وإلى شهادة قلبى الصادق — أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء ، قد تقترن أحبانا بالثقافة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى — التى تنقل متانة عما ذكرت ، والتى أتجاوز عن ذكرها هنا — نتيجة مرات نجاحى الأولى ، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوى . فلتقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف ! .. على أن من النساء اللائى سعين إلى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت أقوى صلة بى من سواها . تلك هى السيدة المركيزة نى كريكى .

(١) ميله الى كل من يبدى له اللطف والاطراء .

(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة .

١٧٢ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

ابنة أخ السيد « لويابيلي دى فرولاي » ، الذى كان سفيرا لفرنسا فى (مالطة) وكان أخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى السفارة الفرنسية فى (البندقية) ، وزرته عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى إلى ، غذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضع مرات ، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء .. منهم السيد سوران — مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرها — الذى أصبح من ذلك الحين الد أعدائى ، لغر ما سبب أستطيع أن أتصوره ، سوى أننى أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، أننى — كناسخ كان ينبغى أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء — كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن أن يكون جد مريح ، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقى . وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محو أو كشط الأخطاء التى كنت ارتكبتها فيما أنسخ ، أو فى إعادة كتابته من جديد . وقد أدى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطبق باريير يوما بعد يوم ، وإلى حملى على أن أنشد الريف برغبة قوية . فذهبت عدة مرات لأقضى أياما فى (ماركوسى) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها .. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث أنه لم يجد أى ضرر فى مقامنا فى داره .. ولقد ذهب

اعرفات جان چاله روسو - الجزء الثالث ١٧٢

معنا « جريم » مرة إلى هناك (١). وكان الأسقف ذا صوت رخيم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع أنه لم يكن ملها بالموسيقى إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة . ومن ثم فقد قضيت الوقت في ترديد الأغاني الثلاثية التي كنت قد وضعتها في (شينونسو) ، كما لحن أغنيتين أو ثلاثا جديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعها . ولست أملك أن أمنع نفسي عن التحسر على تلك الاغاني الثلاثية التي وضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتي تركتها في (فوتون ومها جميع قطعى الموسيقية . ولعل الأنسة دافنبورت قد اتخذت منها أثرطه ورقية لف شعرها . . على أنها كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت — في الغالب — دقيقة الوزن . وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة — وقد اغتبطت لرؤيته « العمة » منشرحة مسرورة ، كما كنت أنا الآخر مبتهجا — أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا ، نظمته في عجلة وفي غير عناية . . وسيوجد بين أوراقى .



(١) أضف « روسو » الى هذا ، الاستدراك التالى : « لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث ثامه ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المذكور ذات صباح ، وقد اعترنا تناول الغداء عند عين (سان ماتريل) ، فأننى لم أعود الى هذا الحادث . ولكنى حين فكرت فيه — فيما بعد — استنجت جريم كان يبيت النية في قرارة قلبه — منذ ذلك الحين — على المؤامرة اسر نفذا فيما بعد بنجاح رائع !

وكان لى - فى مكان أكثر قريبا من باريس - ملاذ آخر يلائم مزاجى . . تلك هى دار السيد « موسار » . مواطنى وقريبى وصديقى ، الذى أعد لنفسه مأوى فائنا فى (باسى) ، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوداعة . وكان السيد موسار تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جع من حرنته ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالمالبت - ابن صراف ومدير فندق الملك - ثم استقر رأيه الحكيم على أن يهجر فى أيام شيخوخته التجارة والعمل ، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الاجل . وكان « موسار » الطبيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعيش بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها بيديه . وفيها كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر على قواقع متحجرة ، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى أنهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع! . . وأصبح لا يفكر دائما إلا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الفذ ، حتى أهاجته هذه الأفكار ، وأوشكت - فى النهاية - أن تتخذ فى رأسه شكل نظرية - أعنى خبلا - لولا أن الموت تدخل فى الأمر - لحسن حظ عقله ، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعترضون به ، ويجدون فى داره أبداع مأوى - فانتزعوا من بينهم ، متوسلا بأغرب وأقسى مرض . . ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون أن يهبدى سببه برغم طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من العذاب ! . . ولست أملك أن استرجع نهاية عمر هذا الرجل ،

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث . ١٧/٥

دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا — « لينيبب » وأنا — بسرور عارم . . وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيتها ، على أن يثأر عنه إلى آخر ساعة فى حياته . . وانى لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام — الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا — إلا بعينيه ، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاى الخفيف ، إلا ليلفظها فى اللحظة التالية ! . . ولكن كم من أوقات — قبل تلك الآلام — قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها من الأصدقاء ! . . وانى لأضع على رأس هؤلاء الراهب « بريفو » (١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جدية بالخلود ، ولا يبدى — سواء فى مظهره أو فى معشره — شيئا من ذلك الجو القاتم الذى غرضه على مؤلفاته . . والطبيب « بروكوب » ، وكان « بعسوب . صفر » (٢) ، ذا حظوة لدى النساء ، و « بولانجيه » المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عمد فيما اعتقد — إلى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر الدنيا . . أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنييس » ابنة أخت « فولتير » ، التى كانت — إذ ذاك — طيبة ساذجة ، ولم تكن

(١) اشتهر باسم « الأب بريفو » ، واسمه الأصلى « بريفو ديكسيل » . وهو مؤلف قصة « ماتون ليسكو » الخالدة . وقد ولد فى سنة ١٦٦٧ ومات فى سنة ١٧٦٣

(٢) يعسوب : شخصية أسطورية اغريقية ، وإن كان هيردوت يقول أنه شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

١٧٣١

قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر .. والسندد " نألو " التي لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت غائنة ، ونانت في غفاسا كالملاك .. والمسيدة « فالماليت » التي كانت تحذق الغناء هي الأخرى ، والتي كانت — برغم هزالها — بالغة اللطف لو أنها خفت من تظاهرها باللطف !!.. هؤلاء كانوا صنف رواد ندوة السيد موسار — تقريبا — وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذلى ، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت الذ ، حتى لاذهب إلى القول بأننى عكفت لسنة أشهر على العمل فى مكتبه . فى دراسة هذه النظرية ، باعتماد لم يكن يقل عن اغتباطه !

وكان يلح — من زمن طويل قبل ذاك — بأن مباد (باسى) كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلح فى أن أتردد على داره لكى أتناولها . وقد انصعت أخيرا له لكى أترفع نفسى — بعض الوقت — من ضجيج المدينة ، ففقتيت فى (باسى) ثمانية أيام أو عشرة ، أفدت منها كل الفائدة ، بفضل إقامتى فى الريف ، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان « موسار » يهوى العزف على الكمان الكبيرة ، ويشغف بالموسيقى الإيطالية . وفى ذات مساء ، أطلنا الحديث — قبل أن ناوى إلى مخادعنا — فى هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بوغا » ، التى رآها كل منا على حدة — فى إيطاليا — والتى أعجب بها كل منا إعجابا بالغا .. ولم أتم فى تلك الليلة ، فشرعت أفكر فى وسيلة ممكننى من أن أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا . إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع (١) .

(١) كوميدية موسيقية عرضت فى « الأوبرا » الباريسية فى سنة ١٧٤٢

اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث ١٧٧

وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر -
تتمشى مع هذه الفكرة - أثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه -
ونسقتها مع الألحان التي توافدت على رأسي خلال ذلك .
وسطرت جميع هذه الأغاني ، في « صالون » ذي قبة ، فوق
الحديقة . ثم لم أتورع عن أن أعرضها - أثناء تناول الشاي -
على موسار والأنسة دوميرنوا مديرة داره ، التي كانت
بالغة الطيبة واللطف حقا . وكانت القطع الثلاث التي نظمتها
في عجلة ، تؤلف الأغنية الفردية الأولى ، وهي : « فقدت
خادمي » ، و « عراف القرية » ، و « الحب يخشى على نفسه » .
.. ثم الثنائي الأخير : « أبدا لن أخطبك ، يا كولان » ، الخ !
ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضي
فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما ،
لكنت خليقا بأن ألقى قصاصاتي إلى النار ، ولا أعود إلى التفكير
فيها ، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه ،
على الأقل ! .. ومن ثم فقد وجدته متحمسا ، حتى أن
« الدراما » اكتملت خلال ستة أيام ، فيما عدا بضعة سطور .
كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها ، فلم يعد أمامي ما أفعله
في (باريس) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية ، وإن
أما بعض الحواشي . وقد فرغت بسرعة من كل هذه ، فلم
تنقض ثلاثة أسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، وأصبحت
مهية للعرض . ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال
من منظر إلى آخر ، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك
بوقت طويل .

سنة ١٧٥٢

أثارنى وضع هذا العمل الأدبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم إلى سماعه ، وحتى أننى كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شيء ، فى سبيل أن أراه معروضا أمامى — بالشكل الذى كنت أتثله فى خيالى — فى غرفة موصدة ، كما فعلت « لولى » — فيها يقال — إذ شهدت يوما مسرحية « ارميد » تمثل أمامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . ولكنها — لسوء الحظ — كانت من نمط جديد كل الجدة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلنى أتوقع المصير ذاته للعراف (١) ، إذا أنا قدمتها باسمى . وقد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المازق ، إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية ، دون أن يكشف عن اسم المؤلف . ولكى لا أنم عن نفسى ، فأننى لم أحضر التجربة، وظل كل امرئ — حتى « الكمانان الصغيران » (٢) ، اللذان توليا الاخراج — يجهلان اسم المؤلف ، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من سمعها ، حتى أن

(١) أطلق روسو على هذه « الأوبرا » اسم « عراف القرية » .

(٢) لقب اشتهر به « ريبيل » و « فرانكور » اللذان كانا بوليان الاخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الأوبرا » . وقد سميا بذلك ، لانهما اعتادا فى صباهما أن يطوفا بالبيوت ، وهما يعزفان على « الكمان » .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١١/٩

جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي . ولقد شهد السيد كورى — مدير حفلات البلاط — التجربة ، فطلب المسرحية لتعرض في البلاط ، ولكن ديلكو — الذى كان يعرف نواياه مخشى أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقل منه في باريس — رفض أن يسلمه إياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه . واحتدم الجدل بينهما ، حتى لقد تطور ذات يوم — وهما في « الأوبرا » — فاوشكا أن يخرجها ليتبارزا ، لولا أن حيل بينهما .

ورؤى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت في ذلك إلى السيد ديلكو ، فكان لابد من الرجوع إليه . وتوسط السيد الدوق دومون في الأمر ، فرأى ديلكو — في النهاية — أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل في (فونتنبلو) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام ، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الإلقاء الغنائى . فقد نسق الإلقاء — في أوبراى — بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد ، إذ خيف من أن يصدم الأذان التى الفت الرتابة . ومن ثم فأننى وافقت على أن يضع « فرانكويى » و « جيلويوت » الحاناً جديدة للإلقاء ، ولكنى رفضت أن تكون لى يد في ذلك .

وإذ تم إعداد كل شيء ، وحدد يوم العرض ، أقترح على أن أرحل إلى (فونتنبلو) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الأقل . فذهبت مع الأنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال »

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

١٨٠

— على ما أظن — في إحدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة باس بالتجربة ، بل أنني كنت أكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيي « الأوبرا » والفرقة الملكية . وقام « جيلبوت » بدور « كولان » ، والأنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوغيتيه » بدور العراف . وكان المنشدون من « الأوبرا » . ولم ادل بغير ملاحظات قليلة ، فقد تولى « جيلبوت » الاخراج ، فلم أشأ أن افرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الرومانى ، فاننى كنت فى حياء التلميذ إذا ألفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !

وفى اليوم التالى — وهو يوم العرض — ذهبت لانتناول الفطور فى مقهى « الجسران كومون » ، فاذا به زاهر بالناس ، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول إلى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، إنه دخل بلا عناء ، وأسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى أذهلنى فى حديثه الطويل — الذى ألقاه فى بساطة واعتداد — أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة! .. بل لقد تجلّى لى تماما ، أن هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف — الذى قال إنه رآه كما صوره — حاضرا أمام عينيه ، فلم يتعرف عليه! .. وكان أغرب ما فى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى . فخلقد كان ذلك الرجل كبير السن ، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل ان

١٨١

اعترافات جان چاه روسو - الجزء الثالث

سيماه كانت تنم عن أنه رجل غاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » - على صدره - يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد ابتأثر باهتمامى بالرغم منى ، وبرغم قحته فى الكذب . وفيما كان يمضى فى أكاذيبه ، راح وجهى يتضرج خجلا ، وأخذت أغضض بصرى وأتململ فى مجلسى . وكنت أسأل نفسى أحيانا : أليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة ؟ ! . . وأخيرا ، أسرعى بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبس ببنت شفة ، وأنا ارتجف خشية أن يتعرف على أحد فيخبطه ، ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسى ، وغادرت المتهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصفه . ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح فى العرق . ولو أن أحدا عرفنى وذكر اسمى قبل خروجى ، فانى أوقن بأننى كنت خليقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبدىه أى مذنّب ، لمجرد الشعور بالصفار الذى كان الرجل جدير بأن بشعر به إذا ما افتضحت أكاذيبه !

وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فان من العسير أن أقصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا ألا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير . على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صدرت فى تصرفاتى ، دون أن أضيف ما ينم عن إطرأ أو عن لوم . ففى ذلك اليوم المقصود ، بدوت فى نفس الزى المهمل الذى الفته ، وقد نمت لحيتى ، وبدأ شعرى المستعار غير منسق . وبهذا المظهر الذى نبا عن اللياقة ، والذى كنت اعتبره دلبلا

على الشجاعة ، دخلت القاعة التى كان من المنتظر أن يند عليها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لاحتل مكانى فى المقصورة التى قادنى إليها السيد دى « كورى » . . وكانت هى مقصورته ، مقصورة واسعة . . فى مواجهة مقصورة أخرى ، أصغر منها حجما ، وأكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلنى شك فى أننى أجلس كذلك ، لكى أبدو واضحا ، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك ، وقد أحاطت بى السبكات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجدتنى — فى ملابسى تلك — وسط قوم فى أوج الأناقة ، فبدأت أشعر بضيق وخرج . وسألت نفسى عما إذا كنت فى المكان اللائق ، وعما إذا كنت فى الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، أجبت نفسى عن هذا التساؤل فى جراحة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، أكثر مما انبعثت عن قوة حججى : « أجل » . . . وقتلت لنفسى : « إننى فى المكان اللائى بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتى . . وإذا كنت فى ثيابى المعتادة ، ولست فى أفضل أو أقل مما ألفت ، فما ذلك إلا لأننى دعيت ، ولأننى ألفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب ، ولأنه — فوق كل شيء — ليس هناك من يفوقنى جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبى ولو أننى عدت إلى الخضوع للرأى العام فى أمر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام — فى كل شيء — من جديد . أما إذا شئت أن أثبت على نهجى ، فمن الواجب ألا أخجل — أينما أكون — من أن ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التى اخترتها لنفسى . ان مظهرى الخارجى بسيط وغير متأنق ، ولكنه ليس قذرا ،

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٨٣

ولا مستهجننا . وكذلك اللحية — فى حد ذاتها — ما دامت الطبيعة هى التى تخلعها علينا . . بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة . وقد يرانى الناس مضحكا ، أو سفيها . . حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ . . يجب أن اتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم : ما دمت لا استحقهما !



» وشعرت بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودنى . إلى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئاً . . وهو ما كنت بحاجة إليه . على أننى لم أرفى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للأدب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الرأى إلى تأثير وجود العاهل ، أو إلى التصرف الطبيعى الذى أبداه أولئك الذين أحاطت بى قلوبهم . . وشعرت بالتأثر ، حتى أننى بدأت أحس بالقلق — من جديد — على نفسى وعلى مصير مسرحيتى . خشية أن اقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة — فى صالحى — كان يبدو لى أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تفرغت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم — الذى لم أكن أتوقعه — طفى على كل الطغيان ، حتى أننى رحت أرتجف كالطفل ، عندما ابتدأ التمثيل !

وسرعان ما تبين أن ليس ثمة مبرر للقلق . . كان أداء

المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين ، ولكن الغناء كان جيدا .
والموسيقى حسنة الأداء . ومنذ المشهد الاول -- الذى كان
مؤثرا فى بساطته حقا -- سمعت فى المقصورات تمتمة اندهائش ،
واستحسننا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات .
وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته ، حتى أنه تفشى فى جميع
النظارة ، وأن ضوعف أثره بفضل هذا الاثر ذاته ، كما ينبغي
أن يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الاثر أوجه فى
المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن
المعتاد ألا يصفق أحد قط ، فى حضور الملك ، وقد ساعد
هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما أفاد التمثيلية والمؤلف .
وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ،
وهن يقتلن بعضهن لبعض : « هذا فاتن .. هذا خلاب ! ..
ما من نعم هنا إلا وينبتق من القلب ! » . وهزنتى لذة التأثير
على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى انطلقت دموعى ، فلم أستطع
أن أكبحها فى الاغنية الثنائية الاولى ، إذ لاحظت أنني لم أكن
الوحيد الذى بكى ! .. ومرت بى لحظة ، رجعت فبها إلى نفسى
إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التى أقيمت بدار السيد دى
« تريوران » . وحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور
العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المخطفين (١) .

(١) عادة كانت متبعة فى مواكب النسر لدى الرومان .

ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل ، إذ اننى سرعان ما استسلمت تماما - ودون أى تحفظ - لنشوة مذاق مجدى . ومع ذلك فانى أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - فى تلك اللحظة - أكثر أثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة ! . فمن المؤكد أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضسور ، لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحة فى أن اطلقى بشفتى ، الدبوع العذبة التى تسببت فى انسيابها ! . ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان أشد مما رأيت فى هذه الليلة ، ولكنى لم أشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لاسيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وانها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك ، لا يزالون يذكرونها ، فقد كان تأثيرها غذا !

وفى الليلة ذاتها ، أوفد إلى السيد الدوق دومون ، من أنبأنى بان أكون موجودا فى القصر ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، ويأبأنه سيقدمنى إلى الملك . وأضاف السيد دى كورى - الذى حمل إلى الرسالة - أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحى معاشا ، وأن الملك أراد أن يعلننى بذلك بنفسه ! . . فهل مما يصدق أن الليلة ، التى أعقبت يوما بهذا الاثراق ، كانت ليلة هم وحيرة ؟ . . كانت أولى أنكارى ، بعد

هذه الخواطر السالفة ، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١) ، كبدتني في المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن أن تعذبني في اليوم التالي ، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه ، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك ! كان هذا الداء هو السبب الرئيسى الذى حملنى على تجنب الاجتماعات ، والذى منعنى من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفكير في الموقف الذى قد تقمى فيه هذه الضرورة ، كافيا لأن يجرىنى إلى درجة تسلمنى إلى الإغماء ، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أؤثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

ورحت — بعد ذلك — أتصور نفسى ماثلا أمام الملك ، وأنا أقدم إليه ، فيتنزل ويقف ليحدثنى . . وهنا لا بد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للاجابة . أفكان حياثى اللعين — الذى اعتاد أن يضايقنى أمام أقل المغمورين — ليهجرنى أمام ملك فرنسا . . . وهل يدعى أحسن اختيار ما ينبغى أن يقال ، في التو ؟ . . . ووددت لو أستطيع — دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما — أن أبدى

(١) يتصد الخروج لغشاء حجلة . ولعلنا نذكر أنه كان يتعرض لنوبات يكثر

بها من التبول^(١)

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٨٨

إدراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟ .. كان لابد لى من أن ألفت بعض الحقائق الجليقة والنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع ! .. ولكى أتمكن من أن أعد - مقدما - جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واثقا - بعد ذلك - من أننى لن أستطيع أن أستحضر فى وجوده ما أكون قد أعدته ! .. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، أمام أعين الحاشية كلها ، إذا افلكت منى ، فى غمرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟ .. لقد روعنى هذا الخطر وأزعجنى ، وجعلنى أرتجف وأنا أعقد العزم على ألا أعرض نفسى له ، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح أننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكنى - فى الوقت ذاته - نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة ! .. كيف كنت أجرو - بعد ذلك - على أن اتكلم بحرية ونزاهة ؟ .. لم يكن لدى سوى أن اتلقى ، أو أن أصمت ، لو أننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذ الذى كان يضمن دفعه لى ؟ .. واية خطوات كان على أن اتخذها ، وأى أناس كنت مضطرا إلى أن أداهن ؟ .. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدنى أكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات ! .. ومن ثم فقد اقتنعت بأننى

١٨٨ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

إذ أرفضه إنما أتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئى ،
وأضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد أفضيت إلى جريم
بعزى ، فلم يعارضنى . أما بالنسبة للآخرين . فقد تعللت
بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

* * *

وأثار رجلي ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت
حججى لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا ، وسرعان ما اتهمت
بالصلف ، مما أرى - للتو - غير أولئك الذين شعروا بأنهم
ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت ! . . وفى اليوم التالى ، كتب إلى
« جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيلتى ، والشغف الذى
أبداه الملك نفسه بها . وقال أن جلالته لم يكف طيلة النهار عن
الغناء ، بأكثر صوت فى مملكته ، مرددا : « لقد فقدت خادمى ،
لقد أضعت كل هنائى ! » . . وأردف أن « العراف » ستعرض
مرة ثانية بعد أسبوعين ، مما سيعزز أمام عيون الجمهور كله
النجاح الباهر الذى كلل العرض الأول !

وفى ما كنت ألج دار السيدة ديبيناي - فى الساعة التاسعة
مساء ، بعد يومين - حيث كنت مزمعا أن أتناول العشاء ،

رايت مركبة تعترض طريقى إلى الباب . وأشار إلى شخص في المركبة بأن أصعد إليها ، فصعدت ، وإذا بهذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش في حرارة ما كنت أتوقعها من فيلسوف في مثل هذا الموضوع . ولم ير جريمة في ألا أكون راغبا في أن أقدم إلى الملك ، ولكنه رأى أن عدم اكتراثى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسى ، فليس من حقى أن أكون كذلك من أجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فإن من واجبى ألا أحرهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما . . وبما أنه لم يكن من الممكن أن يقال — برغم كل شيء — اننى رفضت هذا المعاش ، فقد أصر على أن من الجدير بى أن أطلبه ، وأن أحصل عليه بأى ثمن ، ما دامت نية لمنحى إياه . ومع اننى تأثرت لتحمسه ، إلا اننى لم استطع أن أقر مبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان أول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافاتنا — التى أعقبت ذلك — من نفس النوع ، إذ كان يملى على ما كان يزعم أن من الجدير بى أن أفعله ، فى حين اننى كنت أرفض فى حزم ، لاننى لم أكن أومن بأنه واجب على !

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا ، فرغبت فى أن أصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبيناي ، ولكنه لم يكن راغبا البتة . . فبالرغم من أن الجهود التى كانت الرغبة فى الجمع بين أولئك الذين أحبهم تدفعنى إلى بذلها من وقت إلى آخر ، فاننى لم



رايت مركبة تعترض طرقى الى الباب ، واتار الى شخص فى المركبة
بان اصعد اليها .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٩٩

أفلح في إغرائه على زيارتها .. بل إنني ذهبت إلى أبعد من هذا ، إذ صحبت السيدة إلى بابه ، فرفض أن يفتح لنا ! .. كان يعزف دائما عن لقاءها ، ولم يكن يتكلم عنها قط ، إلا في ازدياء بالغ .. وما تألف الاثنان إلا بعد خلاف مع كل منهما ، وإذ ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن يدرو وجريم كانا بحاولان أن يؤلبا « الدادتين » على ، وأن يفهماها أنهما إذا لم تكونا في رخاء ، فأنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي ، وأنهما لن تصيبا مني أى خير قط ! .. ولقد حاولا أن يحلاهما على هجرى ، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناي على رخصة لبيع الملح ، وحائوت لبيع التبغ ، وما لست أقره كذلك ! .. بل أنهما رغبا في أن يستدرجا ديكو ، كما استدرجا دولباخ ، إلى مخالفتها ، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير ، ولكننى لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمان طويل . وكثيرا ما أكون على حق إذ أرئى لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائى الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأنى — وأنا معلول ، وفى أشد حالات العزلة الكثيرة — ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادى ، بالوسائل التى كانت خير ما يؤدى إلى إتعاسى ، فى الواقع !

سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية « العراف » فى باريس ، فى عيد المرافـ (الكرنفال) التالى ، أى فى سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا — فى تلك الأثناء — لوضع لحن الافتتاح ، والالحن

التي تتخلل المشاهد . وكان لا بد لهذه الألحان — كما وضعت وكتبت — من أن تشيع حركة في التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وأن تجعل منها في مجموعها — في رأيي — لوحات جد مستحبة . ولكنني حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم ألق مستمعا واحدا ، فاضطرت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات ، بالطريقة المعتادة . وكانت النتيجة أن هذه الألحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد ، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم أنها كانت زاخرة بالافكار البديعة . ولقد حذفت الألحان الالقائية التي وضعها « جيليو » ، وأحلت محلها الحانا من وضعي ، هي تلك التي كانت موجودة في الاصل . فاذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية — ، كما اعترف — وأقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون — إلا أنها لم تؤذ سمع أحد ، بل أنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك — من ناحية النظم — حتى لدى الجمهور . واهديت التمثيلية إلى السيد « ديكلو » الذي رعاها ، وأعلنت أن هذا سيظل الاهداء الوحيد . على أنني كتبت إهداء لشخص آخر — بموافقة السيد « ديكلو » نفسه — ومع ذلك فانه ولا بد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !

ولدى عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة امورا أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا أنفقته في تلك . على أنني قد أعود إليها يوما ، في « الملحق » . وإن كنت — مع ذلك — لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها اثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، في مكتب البارون هوبسايخ ،

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث ١٩٣

على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو يرينى مجموعة من الألحان على المعزف : « هاك قطع لحتت من أجلى خصيصا ، وهى مليئة بالذوق ، صالحة للفناء ، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الألحان التى تتخلل مشاهدك ! » .. ولما كان ذهنى زائرا بموضوعات الألحان و « سيففونيات » تفوق ما كان بوسعى أن أفيد منه ، فأننى لم أبد كثير احتفال بالحنانه . على أنه راح يلح على بحرارة اضطرتت معها إلى أن أنتقى إحدى أغانى الرعاة ، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (١) المسرح . وحدث بعد بضعة أشهر — و « العراف » ما تزال تعرض — أن ولجت يوما غرفة « جريم » ، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، وإذا به هو ينهض عن المعزف فى تعجل ، بمجرد وصولى . واتجه بصرى — بحركة آلية — إلى حامل « النوتة » الموسيقية، فمريت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى ألح على أن آخذها ، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط ! وبعد ذلك ببعض الوقت ، رابت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة ديبيناي ، فى يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية فى دارها . ولم يتحدث جريم أو أى شخص آخر عن هذا اللحن ، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، اننى لم أكن مؤلف « عراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، فأنى أوقن أنه كان من المحتمل أن

(١) بطة أوبرا « عرافة القرية »

يقال اننى لم أكن أعرف شيئا عن الموسيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته (١) .



ولقد حدث قبل إخراج « عراف القرية » بفترة من الزمن ، أن وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين فدعوا إلى التمثيل فى « الاوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدرًا أن يترتب على ذلك . وإذا كانوا سيبدء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت - غير حافلة - على لذة القطع التى كانت تعزفها ، فانهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢) ، اللذين كانا يسمعان فى الدار ذاتها ، فى يوم واحد ، فتح الأذان الفرنسية ، فلم تعد تطبق ببطء الموسيقى التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية . فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف . فرؤى أن من الضرورى تغيير نظام العرض ، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية . فعرضت « ايجليه » ، و « بيجماليون » و « الجن » (٣) . ولكن لئلا منها لم تستطع أن تستوى على

(١) ما كنت لأحس على الإطلاق ، أن هذا سيقال فيها بعد ، برغم وجود « القاموس » !

(٢) موسيقى الاوبرا الفرنسية ، وموسيقى الاوبرا الإيطالية .

(٣) Eglé, Pysmalion, Lesylphe

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ١٩٥

ساقياها . ولم تصمد لمقارنة سوى « عراف القسرية » ، إذ
قوبلت باستحسان فاق « الوصفة » (١) الإيطالية ذاتها .
وكان ذهني مليئا — عندها وضعت المشهد الذى بين فصلى
تمثيليتى — بالحن تلك المسرحية الإيطالية ، فاستعرت بعض
افكار منها . غير اننى كنت أبعد من أن أتوقع أن أنتقد فى هذه
الناحية . ولو اننى كنت ممن يسطون على إنتاج الغير ، فكم من
سرقات كان يجب أن تتكشف ، وكم كان هناك من المشوقين
إلى أن يعنوا بابرارها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقد
ضاعت هباء كل المحاولات التى بذلت للعثور فى إنتاجى الموسيقى
على أنه اثر من موسيقى سواى . . كما أن كل أغانى كانت
تبدو — إذا ما قورنت بالأغانى الأصلية التى كان يزعم اننى
أخذتها عنها — جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذى ابتدعته .
ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرض لمثل هذا الفحص
والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين
جد متحمسين ، فإذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين ، راحا
يتجادلان فى عنف وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين .
وكان اقواهما نفوذا ، وأكثرهما عددا ، يتألف من العظماء ،
والاغنياء ، والنساء ، ويتشبث بالموسيقى الفرنسية . . أما
الأخر — وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا — فكان يتألف من

١١ Serva Padrona وهو احدى التمثيليات التى كانت الفرقه

فنانين حقيقيين ، ومن أكفاء ونوابغ . وكانت عصبة تجتمع في دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي ، تحت مقصورة الملك . ومن هنا جاء اسم الحزبين الذين اشتهدا في ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملكة » .

وإلى الخلاف — إذ احتدم — إلى إصدار منشورات . فإذا شاء « ركن الملك » أن يهزأ ، سخر منه « النبی الصغير » ، وإذا أحجم نفسه في جدال ، أفحمته « رسالة في الموسيقى الفرنسية » .. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة ، أما النشرات الباقية فقد ماتت .. وكان « جريم » يحرر الأولى ، وأنا أحرر الأخرى !

بيد أن « النبی الصغير » ظلت تنسب إلى طويلا — في إصرار — برغم إنكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تجثم محررها أقل عناء .. في حين أن « رسالة في الموسيقى » كانت تميل إلى الجد ، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها ، إذ خيل إليها أنها — ممثلة في موسيقاها — قد أهينت ! .. وأن وصف الأثر الذى أحدثته هذه النشرة — والذى يفوق ما يصدقه العقل — لجدير بقلم « تاسيتوس » (١) .. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت .. وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع ، وبلغت غورة السخط ذروتها ، وأخذ كل شيء ينذر

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومحام ذاع صيته في التاريخ الرومانى

وقد عاش فيها بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث ١٩٧

بانفجار وشيك !.. وما ان ظهرت النشرة ، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ، ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى أنا .. بل انه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفرق منه أبدا . نفى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفى ، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد دى فوييه في إيضاح ما في هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارئ أنني أهرف ، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة في الدولة . ومع ذلك فان هذه الحقيقة واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (١) .



وإذا كانت حيرتى لم تصادر ، فأننى لم أعف من أدنى الإهانات ، بل أن حياتى أصبحت في خطر . فأعدت فرقة موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (١) لاغتيالى أثناء مغادرتى المسرح . وقد نمت إلى ، فلم تزدنى إلا ترددا على « الأوبرا » ، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل ، أن السيد « انسيلو » — الضابط في فرقة الفرسان — الذى كان يكن لى مودة ، قد أفسد مفعول هذه المؤامرة ، إذ دبر حمايتى — عند مبارحتى الأوبرا — دون أن أشعر . وكان أول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وأن يحدث

(١) كتب روسو هذا الجزء حوالى سنة ١٧٦٨

ذلك بأشد الأساليب المهينة . . أى بمنعى علنا من الدخول بدون « تذكرة » ، بطريقة اضطرتنى إلى ابتياع « تذكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول ، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، إذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن اوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول — دون مقابل — طيلة العمر . ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين — ومن ثم فقد كان استحقاقى إياه مضاعفا — إلا أننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح أننى تلقيت — عن طريق خزانة الاوبرا — خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم اطلبها . . فضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للوائح ، فان دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة ، حتى أن الجمهور — الذى كان فى أوج عداوته لى — لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا وبالإجماع ، وصاح كثيرون — من كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة — بأعلى أصواتهم فى دار « الاوبرا » ، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول — وبهذا الأسلوب — مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان ، وهكذا صدق المثل الإيطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة » .

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

(١) أدنى الدرجات فى المسرح . . « أعلى التياترو » .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ١٩٩

ولم يكن لدى إزاء هذا سوى قرار واحد ، هو أن أسترده تمثيلتي ما دمت قد حرمت الجزاء المتفق عليه . ومن ثم كتبت إلى السيد دارجنسون ، الذى كان يتولى إدارة « الأوبرا » ، وأرفقت رسالتى بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردا ، فظلت المذكرة — وكذلك الرسالة — دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا فى فؤادى ، ولم يساعد على تنبيه التقدير الضئيل الذى كنت دائما أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت « الأوبرا » بتمثيلتي وسلبتني الجزاء الذى كنت قد نزلت فى مقابله عن حقوقى فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فإنه يعتبر سرقة . . أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بها للغير وحسب !

أما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع أنه لم يرق إلى ريع ما كان يدره على أى مؤلف سوى ، إلا أنه كان — بالنسبة إلى — من الضخامة بحيث أنه كان كافيا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ، إذ أن هذا العمل كان كاسدا على الدوام . فلقد نلت مائة «لوى» من الملك ، وخمسين من السيدة دى بومبادور — عن عرض التمثيلية فى (البيل فى) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان — وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها . . أى أن هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در على من النقود — برغم سوء حظى وبرغم غيائى — ما يعادل مادره على كتابى «اميل» الذى

٢٠٠ اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث

استغرق منى عشرين عاما في التفكير ، وثلاثة في التأليف ! .. على أننى دفعت ثمننا غاليا، في مقابل الكسب المادى الذى اجدته على هذه التمثيلية .. وقد تمثل هذا الثمن في المضايقات التى لا نهاية لها ، والتى ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الاحقاد الخفية الفاشئة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل ! .. ولم أعد — منذ نجاحها — أجد من جريم وديدرو ، أو من أى من الأدباء الذين كنت أعرفهم — فيما عدا القليل — الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التى كنت أخالنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . واصبحت لا أكاد أظهر فى دار البارون ، حتى يكف الحديث من أن يكون عاما .. ويتجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظل وحيدا لا أجد من أبادله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هذا الانفضاض عنى، ولما كنت أرى أن السيدة دولباخ — التى كانت لطيفة وحفية — قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فأننى رحت أتقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه فى أحد الأيام تحرش بى دون داع ، ودون مبرر ، وفى غلظة بالغة ، فى حضور ديدرو ، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور مارجنسى ، الذى كثيرا ما أعرب لى — منذ ذلك الحين — عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتى .. وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقا . على أن هذا لم يمنعنى من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله ، فى حين أنه لم يفكرنى دائما إلا بعبارات حاقة ، جارحة ، فما وصفنى مرة إلا بـ « خادم المدرسة » الصغير ،

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ٢٠١

دون أن يملك — برغم ذلك — أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان نوعها ، بدرت منى نحوه أو نحو أى امرئ كان يهتم بأمره . وهكذا انتهت إلى أن حقق تنبؤاتى وهو اجسئ ! .. أما انا ، فأعتقد أن أصدقائى المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لى تأليف الكتب — وأن تكن كتباً رائعة — لأن هذا المجد لم يكن غريباً عنهم . بيد أنهم لم يكونوا يغفرون لى أن وضعت أوبرا ، ولا أن لقي هذا العمل الأدبى الفنى نجاحاً باهراً ، لأن أحداً منهم لم يكن فى وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج ، ولا أن يطمع فى عين ما نلت من تقدير وتكريم ! .. كان ديكلو وحده هو الذى سما فوق الغيرة ، بل أنه بدا أكثر مودة لى ، واصطحبني إلى دار الأنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وأنسا ، وملاطفة ، بقدر ما اعتقدت فى دار السيد دولباخ !



وبينما كانت « العراف » تمثل فى « الأوبرا » كان مؤلفها موضوع مناقشة فى « الكوميدي فرانسيز » ، ولكنه كان أقل حظاً من تمثيليته .. ذلك أننى إذ عجزت — خلال سبع أو ثمانى سنوات — عن عرض « فارسيس » فى مسرح الإيطاليين (أوزيتاليان) ، بغضت هذا المسرح الذى كان ممثلوه يسيئون أداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حرياً بى أن أكون أشد رغبة فى أن تعرض تمثيلتى فى المسرح الفرنسى — الكوميدي فرانسيز — منى فى أن تعرض لى الإيطاليين . وأفضيت برغبتي إلى « لانو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قد تعرفت إليه ، والذى كان معروفاً — كذلك — بأنه رجل فاضل ذو نفوذ .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

٢٠٢

ولقد أعجب بتمثيليته الفكهة « نارسيس » ، وأخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها . وحصل لى — فى الوقت ذاته — على ترخيص بالدخول ، دون مقابل ، سررت به كل السرور ، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسى على المسرحين الآخرين (الأوبرا ، والإيطالى) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، برغم أنها قدمت دون ذكر المؤلف . . بيد أن لى ما يحملنى على أن اعتقد أن الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الانستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع أن الاداء أسفر عن نقص فى البراعة ، إلا أنه — بوجه عام — لا يمكن أن يوصف بأنه سئ تماما . على أننى دهشت — وتأثرت — لما تبدى من استغراق الجمهور ، إذ راح يصفى فى صبر وهدوء ، من أول التمثيلية إلى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون أن يبدي أية بادرة تنم عن ملل !

أما أنا ، فقد بلغ من ضجرى — فى العرض الأول — أننى لم أستطيع المكث إلى النهاية . فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى (دى بروكوب) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى . وهناك ، أعلنت مشلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع بأننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقى هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، إعجابا قويا ، حتى أنه بدا لى أقل ما يكون إيلاما ! . . كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصادقة فى الجراة التى أقدمت بها على

اعترافات جان چال روسو - الجزء الثالث ٢٠٣

اعترافى . واعتقد أننى — فى هذه المناسبة — لقيت فى الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بأن أجده من حياء زائف لو أننى لذت بالصمت ! .. على أننى — إذ تبينت أن لا شك هناك فى أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وإن كان التمثيل قد شوهها — عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة — التى كانت من خير ما كتبت — أكتشف عن مبادئ فى صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الإقدام — فى غير ما تحفظ — على عرض هذه المبادئ فى مؤلف أدبى عظيم الأهمية . فقد حدث فى ذلك العام (١٧٥٣) — على ما أظن — أن اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضوع العظيم ، وأذهلنى أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة . على أنه إذا كان قد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت أن بوسعى أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه . . وشرعت فى ذلك .



ولكى أفكر فى هذا الموضوع العظيم ، وأنا مرتاح الخاطر قمت برحلة إلى (سان جيرمين) ، حيث قضيت سبعة أيام أو ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا — التى كانت امرأة طيبة — وإحدى صديقاتها . وانى لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزعات فى حياتى . . وكان الجو جميلا ، وقد اضطلمت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات . وراحت تيريز تتسلى بصحبتهما . أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحلت أشاطرهن

٢٠٤ اعترافات جان چال روسو - الجزء الثالث

ابتهاجن في أويقات الوجبات ، متخففا من كل هم . وكنت أفضى بقية النهار موعلا في الغابة ، حيث أخذت أبحث ، وحيث وجدت صورة العصور الأولى ، فرحت أتعقب التاريخ خلالها في جراءة ، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة . . وتجاسرت على أن أكتشف طبيعتهم ، وأتعبق سر الزمن والأشياء التي شوهت هذه الطبيعة . . وبالمقارنة بين الإنسان — كما صنعه الإنسان — والإنسان كما صنعه الطبيعة ، كشفت له — في كماله المزعوم — عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقاقه . وارتفعت روى — وقد انتشت بهذه التأملات السامية — إلى مقربة من مقام الربوبية ، فأطلت من هناك على أقراني من أبناء البشر ، وهم يسيرون عميانا في طريق الأباطيل والأوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائهم . . ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا يستطيعون أن يسمعوه : « أيها الحمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، الا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم ! » .

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث في عدم المساواة » ، وهو مقال صادم هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتي الأخرى ، وقد أولاني نصيحة بشأنه ، كانت أنفع النصائح^(١) ، ولكنها لم تجد في أوروبا كلها من القراء من أدركها

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى — في الوقت الذي كتبت فيه هذا — أي حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبري ، والا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استفل الأول ثقتي ، لكي يخلع على كتاباتي هذا الأسلوب
==

٢٠٥ اعترافات جان جال روسو - الجزء الثالث

سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها ! ..
وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة ، فأرسلته وأنا واثق
— سلفا — بأنه لن يفوز بنجاح ، إذ كنت أعرف عن يقين أن
جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع !

وادت هذه النزعة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي
وصحتي . إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ،
وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواي — دون أن
يخففوا عني — وهدموا بنيتي . ولكني عندما عدت من (سان
جيرمين) وجدت مزيدا من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن .
وتبعت هذه البادرة ، فعقدت العزم على أن أشفى أو أن أموت
دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم إلى الأبد ، وشرعت
أعيش ليومي ، أستريح عندما أعجز عن المشي ، وأسير بمجرد
أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة في باريس ، بين قوم
أدعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لي . . كان تعصب الأدباء

=

الجاب ، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستهرا بعد أن توقفت عن توجيبي .. فالجزء
الخامس بالفيلسوف الذي سد أذنيه — خلال إحدى نعلات الجمل — حتى يكتسب
صلابة دون أنات رجل في محنة ، من أسلوب ديدو — وقد أمدني بكثير غير هذا
الجزء ، ويفوقه شدة ، حتى أنني لم أتمكن من حمل نفسي على استعماله . على
أننى عرفت تلك الروح القاتمة الى ما جرى له في « زنازة » غاتسبن . . وأن
هذه الروح لتبدو مرة أخرى ، ويتسبب كبيرة ، في مؤلفه « كليفال » . بيد أنه
لم يخطئ ببالي أطلاقا أن أرتاب في أن هذا كان ينطوي على أدنى نية خبيثة !

٢٠٦ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

وتحزيبهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم ، والمظهر المترفع الذي يخدعون به المجتمع . . كل هذه كانت بغیضة إلى نفسی ! . . وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس ، لا سيما أصدقائي ! . . حتى لقد عاشت نفسی هذه الحياة الصاخبة ، واخذت اتوق — في رغبة صادقة — إلى الإقامة في الريف . ولما لم أجد أي أمل في أن تمكّنني مهنتي من الاستقرار هناك ، رحت أسارع إلى قضاء بضعة الساعات — التي كنت أستطيع أن أمرغ فيها من العمل — هناك . واعتدت ، لعدة أشهر ، أن أخرج للرياضة وحيدا — عقب الغداء في بداية الأمر — في غابة (بولونيا) ، لأدير في فكري موضوعات المؤلفاتي المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل !

من سنة ١٧٥٤ إلى سنة ١٧٥٦

رأى « جوفكور » — الذي كانت علاقته به في أوج توثقها إذ ذاك — أن لا بد له من الرحيل إلى (جنيف) بحكم عمله ، فعرض على أن أرافقه في هذه الرحلة . ووافقت على ذلك . وإذ لم أكن بصحة جيدة أستغنى معها عن عناية « الدادة » (١) ، فقد تقرر أن تكون معنا في الرحلة ، وأن تتولى أمها حراسة البيت . وأعددتنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا ، في أول يونيو سنة ١٧٥٤

(١) يقصد تيريز .

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٢٠٧

وجدير بى أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سننى عمرى الاثنتين والاربعين — إذ ذاك — والتى نبهتنى إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائماً أن أسلم نفسى إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة ، دون أن تستبدل جواديها . وكنت كثيراً ما أهبط وأسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصف طريقنا ، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من أن تبقى وحيدة فى العربة مع « جوفكور » ، فما أن رغبت فى الهبوط — بالرغم من رجائها — حتى هبطت هى الأخرى وسارت . وظللت الومها وقتاً طويلاً على هذه النزوة ، بل ورحت أعارضها بشدة ، حتى رأت نفسها مضطرة — فى النهاية — إلى أن تصارحنى بالسبب . . . وخيل إلى أننى أحلم . . . وهويت من حلقى ، عندما سمعت أن صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الستين ، والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبت . . . صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مذبذباً الرحلة ، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امرأة كانت لصديقه . . . وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل ، وبأدعاها إلى الخجل ، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده . . . وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتاباً فاحشاً ، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب ! . . . ولقد ألفت تيريز بالكتاب الخبيث — مرة — من العربة ، وهى فى غمرة السخط . وقالت : ان الرجل فى أول يوم فى الرحلة ، انتهب فرصة إيوائى إلى

٢٠٨ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعانى صداعا شديدا - واستنفذ الوقت كله - وقد كان خلاله وحيدا معها - فى محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، أو بالجدى ، منها برجل محترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جديد على ! ..
 أيقدر لى ، أنا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التى تكسبها بهاءها - أن أجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالاذراء ، وأسحب ثقتى وتقديرى من رجل كنت أحبه ، وكنت أعتقد أننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى التعتس مسلكه المعيب عنى ، ولكى اتجنب إحراج تيريز ، الفيتنى مضطرا إلى أن أخفى عنه استيائى ، وإلى أن أنفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا ! .. نيا وهم الصداقة الوداع القدسى ، لقد كان جوفكور أول من رفع نقابك لعينى ، وكم من أيد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !

وتركت جوفكور فى (ليون) ، لاتخذ طريقى خلال إقليم (سافوا) ، إذ لم أبق على أن أمر - من جديد - على مقربة من « ماما » دون أن أراها . ولقد رأيته . ولكن ، يا الهى ! .. فى أية حال ؟ بل فى أى هوان ؟ ! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. ألمهذه هى السيدة دى غاران بعينها ، التى كانت متألقة ، والتى أوغدننى إليها أسقف بونفير ؟ .. لشد ما حزن قلبى ! .. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها . ورحت ألحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما ألححت

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ٢٠٩

عليها به عدة مرات في خطاباتي ، ضارعا إليها أن تأتي فتعيش معي في سكينه ، وتسمح لي بأن أكرس أيامي وأيام تيريز من أجل أن نحيل أيامها سعيدة . ولكنها أبت أن تصفى إلى متشبثة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئا ، منذ أمد طويل ، برغم أنه كان يدفع بانتظام . ووهبتها - مرة أخرى - قسما طفيفا من نقودي ، يقل عما كان ينبغي أن أعطيها ، وأقل مما كان يجب أن أقدم لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ « سو » واحد !

ولقد قامت - أثناء مكثي بجنيف - برحلة في (شابليه) ، مجاعت لزيارتي في (جرانج كانال) . وكان يعوزها المال كي تواصل الرحلة ، ولم أكن أحمل معي ما كان لازما لها ، فأرسلته إليها بعد ساعة ، بواسطة تيريز . يا للمسكينه « ماما » ! .. فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن أصبعها لنضعه حول أصبع تيريز ، التي نقلته في التو إلى أصبع « ماما » من جديد ، وهي تقبل تلك اليد النبيلة وترويهها بدموعها ! .. آه ! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد ديني ! .. كان خليقا بي أن أهرج الكل لأتبعها ، وأن ألزمها حتى ساعتها الأخيرة ، وأن أقاسمها حظها ، مهما يكن ! .. ولكني لم أفعل شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت - وقد شغلت عنها بغيرها - إذ ان الرابطة التي كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت ، إذ

٢١٠ اعترافات جان چاك روسو ب الجزء الثالث

كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع أن أحيل علاقتي بهما إلى شيء نافع لها ! .. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم أتبعها .. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو أشد ولا أبقي من هذا الباعث ! .. واني لأستحق ألوان العقاب الفظيعة التي لم تكف عن تعذيبى منذ ذلك الحين .. فليتها تكثر عن جحودى ! .. الجحود الذى تبدى فى مسلكى فعلا ، ولكنه مزق قلبى فى عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما !



كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت فى صوغ إهداء « حديث فى عدم المساواة » ، وقد فرغت منها فى (شامبيري) ، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، إذ رايت أن من الأمثل ألا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى أتفادى كل المضايقات . وإذ وصلت إلى (جنيف) ، أسلمت نفسى لتحسسى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهام الذى قادنى إلى هناك، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به . وفى غمرة المآدب والمجاملات التى أحاطتنى بها كل الأوساط ، استسلمت بكل كيائى إلى الغيرة الوطنية ، وقد أخجلنى أن أحرَم من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقى ديناً يخالف دين آبائى (١) ، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورايت أن الأنجيل

(١) كان « روسو » قد تحول عن الكاثوليكية الى البروتستانتية فى صباه .

اعترافات جان چالك روسو - الجزء الثالث ٢١١

واحد لجميع المسيحيين ، وأن لب العقيدة ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين اقموا انفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد - في كل بلد - أن يعين أسلوب العبادة ، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة . . ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقرروا العقيدة وأن يمارسوا أسلوب العبادة للذين نص عليها القانون . وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يززع إيماني؛ بل أنه عززه، لا سيما وأننى كنت أنفر من المنازعات والتعصب. ولقد أدت دراسة الإنسان والكون - في كل مكان - إلى إطلاعى على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . واقد علمتنى قراءة التوراة - لا سيما الانجيل الذى انصرفت إليه عدة سنوات - كيف ازدرى التفسيرات الجوفاء الحقاء ، التى خلعتها على تعاليم عيسى المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق ! . . ومجمل القول أن الفلسفة إذ قربتنى من جوه الدين ، صرفتنى عن هذا الركाम من قواعد الإيمان الزائفة التى حجبت عن الناس هذا الجوهر !

وكما كنت أؤمن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما فى الوصول إلى المسيحية ، فأننى كنت أؤمن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام - فى كل دولة - إنما يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا البدا المعقول : الاجتماعى ، السلمى - الذى جر على ما جر من اضطهادات قاسية - انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن اصبح مواطنا :

٢١٢ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

فإن من واجبي أن أكون بروتستانتيا ، وأن أعود إلى دين وطني . وعقدت عزمي على ذلك ، بل أنني استشرت في ذلك راعي الأبرشية التي كنت أقيم فيها ، والتي كانت خارج المدينة . . ولم أكن أرجو سوى ألا اضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد ، إلا أنه روى التجاوز عنها إكراما لي ، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء ، لتتلقى إقرارى بعقيدتي ، في جلسة خاصة . ولسوء الطالع ، شاء القس « برديو » — وكان شخصا لطيفا ، ليئا ، ربطتنى به روابط من الود — أن يلج على بأن من دواعي الغبطة أن ألقى كلمة في هذا الاجتماع الصغير . وأزعجني توقع هذه الكلمة ، إلى درجة أنني — بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة أسابيع — أعددت خطابا قصيرا . . وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه ، حتى أنني مجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . . وتصرفت كأغبى تلاميذ المدارس ! . . وتولى أعضاء اللجنة عنى الحديث ، ورحت أجيب في عى بـ « لا » و « نعم » ، ثم قبلت في الطائفة ، وردت إلى حقوقي كمواطن . . وكذلك أدرج اسمي في قائمة « الحرس الوطنى » الذى كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (١) ، ودعيت إلى اجتماع غير عادى للمجلس العام ، لتلقى اليمين من « السنديك » موسار (٢) . ولقد تأثرت للمواطن الطيبة التى أبدائها لى المجلس ومجمع

(١) ذكرى « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة ، فكان ضمه الى الحرس نوعا من التكريم له .

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

الكرادلة — في هذه المناسبة — وللإجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى أنني — بدافع من الرجاوات الملحة من ديوك الطبيب ، ومن ميلي الصادق بوجه خاص — لم أعد أفكر في العودة إلى باريس إلا لكي اتخلص من مسكني ، وأسوى أعمالي البسيطة ، وأجد عملا للسيدة لوفاسير وزوجها — يقيهما العوز — ثم أعود مع تيريز فستقر في (جنيف) بقية أيامي .

وإذ استقر رأيي على هذا القرار ، أرجأت كل الشواغل الهامة ، لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى باريس . وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لي ، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع ديوك الأب، وزوجة ابنه ، وتيريزي وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة ، في أبدع طقس عرفته . وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني — عند الطرف الأقصى للبحيرة — وأوردت بعض أوصافها في « هيلويز الجديدة » عندما كتبتها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في جنيف — عدا صلاتي بديوك الذي تحدثت عنه — هي صداقتي للقس فمين ، الذي كنت قد عرفته في باريس من قبل ، والذي كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد . وصداقتي للسيد برديو ، الذي كان — في ذلك الحين — راعي أبرشيته ريفية، وأصبح اليوم استاذا للأدب ، والذي سأظل دائما أتحسر على صحبته المنعمة باللطف والدعة ، وإن كان هو قد رأى أن نصم هذه المعركة ، كان عملا سليما . . وهناك السيد « جالابر » ،

٢١٤ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

الذى كان أستاذا لعلم الطبيعة — إذ ذاك — ثم أصبح مستشارا و « سنديك » ، وقد قرأت عليه رسالتى عن عدم المساواة — بعد أن تجاوزت من المقنعة والاهداء — فبدأ عليه أنه طرب لها . . والأستاذ « لولان » ، الذى ظللت على تراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى إلى درجة أن عهد إلى بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة . . والأستاذ « فيرنيه » ، الذى أدار لى ظهره — ككل الناس — بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كائنا خليقين بأن يمسا قلبه ، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء ! . . وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى أن يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ما خلفه فعلا . . وميرسيه دى ميزير ، وقد كان صديقا قديما لأبى ، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لى ، ولكنه — بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل ، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا ومرشحا لمجلس المائتين — تحول عن آرائه ، ومرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته . . على أن التعارف الذى وضعت فيه أكبر أملى ، هو تعارفى مع « مولتو » . . وكان شابا توحى مواهبه وذكاءه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائما أن اتسرع بعطف عليه ، برغم أن مسلكه نحوى كثيرا ما يثير الريب ، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بالذ أعدائى . . على أننى — برغم كل هذا — لا أستطيع أن اصد نفسى عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائب عن مذكراتى، والمنتقم لى ، بوصفى صديقه !



اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث - ٢١٥

وفي غمرة هذه المتع والمرفهات ، لم أفقد ميلى إلى النزهات التى كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم أكف عن ممارستها . . . وكفى من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة ، لم يكن يمكث خلالها فى رأسى — الذى اعتاد العمل — شئ من الهواجس . وكنت ألقب فى ذهنى أثناءها المشروع الذى كنت قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى لن ألبث أن أتحدث عنه . . . كذلك كنت أفكر فى كتابة « تاريخ فاليه » (١) . . . ومأساة شعرية لم يجرذنى موضوعها — الذى لم يكن سوى حياة « لو كريس » (٢) — من الأمل فى خنق الضحكات ، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المراسلة المتعسة على المسرح مرة أخرى ، فى وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت أن أعالج موضوع « تاسيتوس » (٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » . . . ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .

(١) اقليم « الفالية » فى الأراضى السويسرية ، فى الوادى الأعلى لنهر

المون .

(٢) امرأة رومانية ، قتلت نفسها ياسا وكندا عندما اغتصبها ابن حاكم رومانيا المستبد ، فأدت مأساتها الى قيام النظام الجمهورى فى رومانيا سنة ١٨٠٥ قبل الميلاد .

(٣) تاسيتوسى كاتب روماني أوردنا سيرته فى صفحة ١٧٥ من هذا الجزء

و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته .



ولى غمرة هذه التبع والرفقات لم افقد ميلى الى التزامات التى كنت
انطلق فيها وحيدا على قدمى .

٢١٧ اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث

وبعد أربعة أشهر من الإقامة في (جنيف) ، عدت إلى (باريس) في شهر أكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا التقي في طريقى بجوفكور . ولما كنت قد قررت — في تدبيراتى — ألا أعود إلى « جنيف » إلا في الربيع التالى ، فقد عاودت في الشتاء عاداتى وأعمالى ، التى كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية (البروغات) لرسالتى « حديث في عدم المساواة » ، التى كانت تطبع في (هولندا) ، لدى المكتبى « رى » الذى كنت قد تعرفت إليه في جنيف . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس^(١) ، فقد انتظرت حتى أرى وقته في جنيف قبل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الموقع في صالحى ، بل إن ذاك الإهداء — الذى لم توجه به سوى اتقى العواطف الوطنية — خلق لى في المجلس أعداء كما جلب على غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السب « ثويه » — « السنديك » الأكبر ، في ذلك الحبس — رسالا مهذبة ولكنها غائرة ، ستوجد في أوراقى ، في الملف « ا » ، رقم (٣) . وتلقيت من بعض الخاصة — وبينهم ديوك وجالا بر — تهانى قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء (جنيف) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب ، والتى تبدو ملموسة في الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . وأذكر أننى كنت أتناول الغداء — ذات يوم — في دار السيدة دويان ، في (كليشى) ، بصحبة كروميلان — وزير الجمهورية^(٢) — والسيد دى « ميران » ، فقال هذا في صراحة

(١) مجلس الماتين ، الذى كان بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية جنيف .

(٢) الوزير المفوض لجمهورية جنيف في باريس .

٢١٨ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

مسموعة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة وبتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وأنه إنما يخزى نفسه إذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان — الذى كان ضئيل الجسم ، اسود القلب ، دنىء المكر — أن يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة أضحكت السيدة دويان ! . . وكانت الفائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف — إلى جانب أننى أرضيت به فؤادى — هى لقب « المواطن » الذى خلعه على أصدقائى ، ثم هذا الجمهور حنوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ، لفرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخابى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى إلى (جنيف) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناي كان راغبا فى أن يضيف إلى قصر « لا سيفريت » جناحا كان ينقصه ، فاتفق فى سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا — ذات يوم — مع السيدة ديبيناي ، لمشاهدة عملية البناء مضيئا فى سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، أى إلى مقربة من خزان مياه المنزهات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخا خلويا ، وقد الحق به كوخ صغير مهدم ، يدعى « ليرميتاج » (١) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتى إلى جنيف . وفى إعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه ! .. يا له من مقام بهيج يا سيدتى ! .. ها هوذا ملاذ كأنما خلق لى ! » .. ولم تكثر

اعترافات جان چاند روسو - الجزء الثالث ٢١٩

السيدة ديبيناى لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين . ولكنى — فى زيارتى الثانية — دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم ، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيا ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد ! . . ذلك أن السيدة ديبيناى عملت على إنشاء هذا المبنى فى صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجؤك يادبى . فقد اخترته بنفسك ، وقد أنالك إياه الصداقة ، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما اعتقد أننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك ! . . وغسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . وإذا لم أكن قد تخلت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة ، فإن هذا العزم قد تصدع علم الأقل ! . . وأصبحت السيدة ديبيناى — التى أبت أن تنهزم أما رغبتى فى الاستقرار فى جنيف — شديدة الإلحاح ، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة ، ويكثر من الأشخاص ، لكى تغلب على . . بل أنها ذهب فى ذلك إلى حد أن عينت السيدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها . . وبهذا انتصرت فى النهاية على إصرارى . وإذا تنحيت عن فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن أقيم فى (ليرميتر) . . وبينما كان المبنى بجف (١) ، تكفلت

(١) كانت العادة — فى ذلك العهد — أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ

من بنائه ، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى إنشائه .

٢٢٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث
السيدة ديبيناى بأمر الأثاث . ومن ثم فإن المكان كان معدا
تماما للسكنى فى الربيع التالى .



وكان من الأشياء التى ساعدت كثيرا على أن أبت فى الأمر،
استقرار المقام بفولتير ، على مقربة من جنيف . فقد أدركت
أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك ، وأننى خليق
بأن أجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر ، والأخلاق التى
كانت تنفرنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع،
ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى أن أكون أحد اثنين :
إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق ، أو مواطنا رديئا جباناً ! . . .
أدى الخطاب الذى كتبه لى « فولتير » من كتابى الأخير ، إلى أن
أشير إلى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته إشارتى
معززا لرأى . ومنذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم
الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . ولعله كان من الخلق بى
أن أتحدى العاصفة ، لو أننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن
. . ما الذى كنت أملك أن أفعله — وأنا وحيد ، خجول ، عيبى —
ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند إلى مؤازرة الكبار ، ويجيد
الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ؟ . . لقد
خشيت أن أعرض شجاعتى للخطر ، دون جدوى ، فلم أنصت
إلا إلى فطرتى المسالمة ، وإلى حبى للطمانينة والخمول . . فهو
إذا كان قد خدعنى إذ ذاك ، فإنه لا يزال يخدعنى اليوم ، فى هذا
المضمار عينه ! . . ولو أننى أثرت المقام فى جنيف ، لجنبت
نفسى كثيرا من المحن والتعباسات ، ولكنى — بكل ما أوتيت من
حمية ومن غيرة وطنية — أشك فى أننى كنت مستطيعا أن أقوم
بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى .

٢٢١ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

وكان ترونشان قد استقر في جنيف حوالى ذلك الوقت ،
فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال (١) ،
وليتسلل ببعض كنوزها . وما أن وصل ، حتى قام بزيارة
الشيغالليه جوكور . . وكانت السيدة دييناي تواقّة إلى أن
تستشيرهُ شخصيا ، ولكن الوصول إليه — خلال صفوف
الجماهير — لم يكن ميسورا . وهرعت إلى ، فأقنعت ترونشان
بأن يذهب لزيارتها ، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها
— فيها بعد — على حسابى انا ! . . هكذا كان نصيبى دائما ،
فما جمعت بين صديقين — كنت أعرف كلا منهما على حدة —
إلا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع أنهم فى المؤامرة — التى
دخلها آل ترونشان من ذلك الحين ، لكى ينحطوا ببلادهما إلى
درك العبودية — كانوا يشعرون بمقت نحوى ، إلا أن
الطبيب ظل طويلا يبدى لى آيات حسن النية . بل أنه ذهب
إلى درجة أن كتب لى ، بعد عودته إلى جنيف ، عارضا علم
منصبا فخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولك
رأى كان قد استقر ، فلم يززع هذا العرض عزمى .

ومدت — فى هذه الفترة — أتردد على دار السيد
دولباخ . . وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته —
كما عدا على السيدة فرانكوى — ابان إقامتى فى جنيف . وقد
حدثنى ديدرو — إذ أشار إلى ذلك فى خطاباتهِ — من الحزن
العميق الذى نزل بالزوج ، فحرك الأسى فؤادى ، وتحسرت

(١) تيودور ترونشان الطبيب السويسرى ، الذى ولد فى جنيف سنة ١٧٠٩ ،

٢٢٢ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

— في نفسى — على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلنى أنسى كل أخطائه ، وما إن عدت من جنيف ، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها في فرنسا ليسرى عنه الأسى ، حتى ذهبت لزيارته مع جسيم وأصدقاء آخرين ، وواصلت زيارته — بعد ذلك — إلى أن رحلت إلى (ليرميثاج) . وعندما شاع في الوسط المحيط به ، أن السيدة ديبيناي — التى لم يكن قد تعرف إليها بعد — كانت تعد لى مسكنا ، انهالت على السخريات كالمطر ، وقيل إننى عاجز عن أن أعيش بدون تملق وإطراء المدينة ، وبدون متعها وملاهيها، وأننى لن أطيق البقاء في عزلة ، ولو لخمسة عشر يوما !.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعرى ، فقد تركتهم يقولون ما حلالهم ، ومضيت في طريقي . ومع ذلك ، فإن دولباخ ساعدنى على أن أعثر على مأوى للشيوخ الطيب (لوفاسير) (١) ، الذى كان قد تجاوز الثمانين من عمره ، والذى كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها ، فكانت لا تكف عن أن ترجونى أن أريحها منه!.. وقد وضع في ملجأ للفقراء ، حيث عجل كبر سنه وحزنه لبعده

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « هذه إحدى الحل التى تخذعنى بها ذاكرتى . فقد علمت لتوى — وبعد كتابة هذا بأمد طويل — خلال حديث مع زوجتى من أبيها الطيب ، أن الذى ساعد على انزاله بالملجأ ، لم يكن السيد دولباخ ، وإنما كان السيد دى شينونسو ، الذى كان اذ ذاك من أعضاء لجنة « فنلق الله » . وقد نسيته نهائيا ، وفكرت السيد دولباخ في ذلك ، الى درجة أننى كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذى قام بالخدمة » . والفندق الذى يعنيه « روسو » هنا ، من أقدم ملاجئ باريس .

عن أسرته ، بإرساله إلى القبر ، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا !
 .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا ، ولكن تميز — التي
 كانت مشغوفة بحبه — لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصفح
 عن نفسها قط إذ تركته — وهو على شفا نهاية أجله — يقضى
 أيامه الأخيرة بعيدا عنها !



وتلقت في هذه الفترة تقريبا ، زيارة لم أكن أرتقبها قط ،
 وإن كان صاحبها من أقدم المعارف . وأعني به صديقي
 « فينتور » ، الذى ماجأنى ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر
 شخص يخطر ببالي . وكان معه زميل .. وكم لاح لى أنه
 تغير ! .. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى
 مظهر مفسود منحل ، منعنى من أن أكشفه بدخيلتى .. أو
 لعل عينى لم تعودا كما عهدتهما ، أو أن الانراط فى العبث قد
 أطفا نكاهه ، أو أن كل ثالثه السابق كان يعتمد على إشراقة
 الصبا ، التى لم يعد محتفظا بها ! .. ولقد عاملته فى غير اكتراث
 تقريبا ، واغترقنا فى فتور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى
 أهاجت ذكرى الفتنة القديمة .. ذكريات صباى ، تلك الذكريات
 التى كانت فى رونقها ، وفى بهائها ، وفى كمالها ، مقصورة على
 هذه المرأة الملائكية التى لم تكن — اليوم — أقل تغيرا منه ..
 وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهائلة .. وذلك اليوم
 الشاعرى الذى قضيته فى (تون) ، فى براءة وطرب بين تلكما
 الفتاتين اللطنتين اللتين كان كل ما انعمتا به على ، مجرد قبلة
 على اليد ، ولكنها خلفت — مع ذلك — حسرة ناعمة دائمة ! ..

وإذا كل النشوات البهيجة التى أسكرت قلبى الشاب ، والتى شعرت بها إذ ذاك فى أقوى صورها ، والتى كنت أظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة ، جعلتنى أبكى شبابى الذى أدير بمباهجه ، والذى ضاع على . . آه ! كم كنت جديرا بأن أبكى عودة هذه الذكريات — العودة المتأخرة ، الحزينة — لو أننى تنبأت بالأسى التى كان مرتقبا أن تكبدينه !

وقبل أن أغادر باريس ، وفى أثناء الشتاء الذى سبق اعتكافى ، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبى ، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها . ذلك أن «باليسو» — وكان عضوا فى محفل نانسى، أذاعت صيته بضع تمثيلات وضعها — كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيلات فى (لونيفيل) . على مشهد من ملك بولندا . وكان من الجلى أنه أراد أن ينشد الحظوة ، إذ دس فى تمثيلته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلبه . ولكن « ستانيسلاس » كان رجلا كريما ، لا يميل إلى الهجو ، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل فى محضره . فكتب السيد الكونت دى تريسان — بأمر من الملك — إلى « دالبير » وإلى أنا ، فأنبأنى بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق اقضاء السيد باليسو ، عن المحفل . على أننى رجوت السيد تريسان مخلصا — فى ردى — بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . وإذ كتب لى السيد دى تريسان ليخبرنى — باسم الملك — بذلك ، أضاف أن هذا الحادث سيثبت فى سجلات المحفل ، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، أكثر مما هو

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث ٢٢٥

عفو . وأخيرا ، حصلت — بعد عناء ورجاء — على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، والا يبقى أى أثر منها بصفة رسمية . وقد سحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما أثار زهوى إلى حد كبير . وشعرت فى هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث فى النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخلاء والغرور ! . . وقد ضمنت خطابات السبـ دى تريسان وردودى إلى أضايرى ، وستوجد أصولها فى ما « ١ » ، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١

إننى لأشعر كل الشعور ، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يوما ، أننى أخلد بنفسى هنا ذكرى واقعة كنت أربح فى أن أمحو آثارها ، ولكننى أثبت كثيرا غيرها ، على الرغم منى . فإن الهدف الأكبر لمشروعى هذا ، يتمثل دائما أمام عيني . فإن الواجب الذى لا مخلص عنه ، والذى يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صورته ، لا يدع لى سبيلا للنكوص ، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقنى عن غايتى . إننى فى موقفى الفذ الفريد ، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه . فلكى أعرف القراء بنفسى ، لا بد لى من أعرف كل نواحي هذه النفس ، طبيعتها وريثها . أن اعترافى مرتبطة — بالضرورة — باعترافات كثير من الناس ، وإنى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون أن أجسد ما يقتضى أن أعامل أى امرئ غيرى بما لا أعامل به نفسى ، ولست أتهنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة بفوق ما أبديت .

(٢٥٥ - اعترافات - ج ٢)

إننى أصبو إلى أن أكون دائئاً منصفاً وصادقاً ، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ولا أنكر من الشر إلا ما يتعلق بى ، وبقدر ما أكون مضطراً إلى ذكره .

فمنذا الذى يجد من حقه أن يطالبنى — وأنا فى هذا الموقف الذى أتحمته فيه — بمزيد ؟ . ان اعترافى لم تكتب إطلاقاً لى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصرى ومصير هذا المخطوط ، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقت طويل . ولكن الجهود التى يبذلها الشائنون ذوو النفوذ — مدفوعين بجزعهم منها — لى يحوا كل اثر لهذا المخطوط ، يضطرنى إلى أن أبذل كل ما يسمح لى به أشد القوانين ، واقسى ألوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقدراً لذكرياتى أن تموت معى ، حتى لا أمس أى أحد ، لتحملت أى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . أما وقد قدر لاسمى أن يعيش — أخيراً — فإن من واجبى أن أحاول أن أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذى كان يحمله . كى أبدية على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة ، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لى التلف على سكنى « ليرميتاج » بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البتيع ، فما ان تم إعداد مسكنى حتى أسرع إلى الإقامة فيه ، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانية بأننى لن أستطيع أن أحتل العزلة ثلاثة أشهر ، وأنهم لن يلبثوا أن يرونى عائدا لأعترف بإخفاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . أما أنا - وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيتى - فاننى إذ رأيت نفسى وشيك العودة إليها ، لم أبد أى اكراث مطلقا لمزاحهم الساخر . فاننى منذ أن القيت - على الرغم منى - فى المجتمع ، لم أكف عن التحسر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك .. كنت أحس أننى خلقت للإقامة فى الريف ، فكان من المستحيل أن أهنأ بالعيش فى غيره .. فى البنديقة : فى غمرة الشئون العامة ، وفى منصب خاص بنوع من التمثيل الدبلوماسى ، وفى آمالى الطامحة ومشروعاتى للرقى .. فى باريس : فى دوامة المجتمع الراقى ، وفى الملاذ الحسية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة ، وفى سحب المجد الزائف الذى حفى بى .. فى كل هذه وتلك ، كانت ذكريات أدغالى ، وجداولى ، وتجوالى على القدمين ، حاضرة أبدا لتشفل بالى وتبعث الأسى فى نفسى ، وتنتزع منى التهنيدات والحنين والحسرة !

كل الاعمال التى كان فى طوقى أن أجعل نفسى فى ربتها ،
وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، ولم
يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك البجوحة الريفية الهائلة ،
التى رحت أهنىء نفسى — فى تلك اللحظة — على أننى أحرزتها
. . فأننى وإن لم احظ بالاستقلال الكريم — الذى كنت أعتبره
وحده الكفيل بأن يقودنى إلى هذه الهناءة — إلا أننى رأيت أن
بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، أن أستغنى عنه ، وأن أصل
إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة . على أننى لم أكن
أملك دخلا ما ، وإن كنت أملك أسما ومواهب . . وكنت
معتدلا ، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات
. . تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . وإلى جانب ذلك ،
فبالرغم من كسلى ، إلا أننى كنت مجدا عندما أشاء ، ولم يكن
كسلى راجعا إلى أننى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل
المستقل الذى لا يجب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل . ولم
يكن احترافى نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مريحا ، ولكنه
كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شجاعته إذ
أقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما أن أطمئن إلى عمل ،
وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشى إذا أنا عملت جادا . وكانت
الفرنكات الألفان التى تبقت من أرباحى من «عراف القرية» ومن
مؤلفاتى الأخرى ، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما أن المؤلفات
العديدة التى كانت تحت الاعداد ، كانت تبشر — دون ما تطفل
على الفاشرين — بموارد كافية لأن تمكّننى من العمل على
سجيتى ، دون ما إرهاق لنفسى ، بل ودون أن أجور على أوقات

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث ٢٢٩

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت أسرتى الصغيرة ، مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن إعمالها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى — بالنسبة لحاجاتى ورغباتى — كانت قادرة بحق على أن تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى أن أرمى تهما فى أحضان الجانب الاكثر إدرارا للريح ، وبدلا من أن اذل قلمى للنسخ ، كان بوسعى أن أكرسه تكريسا تاما للكتابة التى كانت — فى الاعتكاف الذى اخترته ، والذى شعرت بأننى قادر على مواصلته — كفيلة بأن تمكّننى من أن أعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو اتنى وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد اننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث أن تخنق نبوغى ، وأن تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى أكثر مما كانت فى قلمى ، والتى لم تتبعث إلا من أسلوب فى التفكير راق ، أشم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة . . فما من شيء هوى ، ولا من شيء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجبر مرتش ! . . إن الحاجة — وربما الجشع — كانت كفيلة بأن تدفعنى إلى أن أتعجل أكثر من أن أتقن . ولولا أن الرغبة فى النجاح زجت بى إلى الدسائس ، لكان من المحتمل أن تجعلنى أناضل لأقول ما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! . . وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى أن أغدوه ، فأننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق ! . . لا ، لا ، لا ! . . لقد كنت أشعر دائما أن مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة ، إلا

٢٢٠ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة . . إذ أنه من الصعب ، كل الصعب ، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلًا ساميًا ، إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للرزق ! . . ولكي يكون الكاتب قادرا ، ولكي يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغي ألا يعول على النجاح ويركن إليه . ولقد دفعت بكتبى إلى الناس بضمير مطمئن إلى أنني إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حائل بأى شيء آخر . فإذا رفض الكتاب ، فيا تمسك لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه . أما أنا ، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لى أعيش ، فإن مهنتى كانت كفيلة بأن تعولنى ، إذا لم تلق كعبي مشترى . . وهذا بالذات هو الذى جعلها تباع وتروج !

وفي التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينة فلم أعد إلى سكنى المدن قط ، إذ أنني لا اعتبر من السكنى فى شيء ، تلك الفترات الوجيزة التى قضيتها — فيما بعد — سواء فى باريس أو فى لندن أو غيرها من المدن . فقد كانت مجرد إقامة عابرة ، أو إقامة بالرغم منى دائما ! . . ولقد أقلت السيدة ديبيناي ثلاثتنا فى عربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر متاعى البسيط ، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيا ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق ! . . كانت اليد التى عنيت بأعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه — فى نظرى — قيمة تفوق كل تقدير . وقد لذ لى أن أكون ضيف صديقنى ، فى بيت من اختياري ، شيدته هى خصيصا لى !

اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث ٢٣١

ومع ان الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الاشجار .. وقد امتازت ليلة وصولى بأول شدة للبلبل فى أعقاب الشتاء، وقد انبعت من غابة كانت تتاخم البيت ، فكانما كان البلبل ذاته عند نافذتى ! .. وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت أننى لا أزال فى شارع (جرينيل) ، لولا ان شدو البلبل نبهنى ، فهتفت فى نشوتى : « ها قد تحققت كل أمانى أخيرا ! » .. وكان أول ما فكرت فيه هو ان أسلم نفسى لمفعول الأشياء الريفية التى كانت تحيط بى . وبدلا من أن أشرع فى تنسيق مسكنى، فأننى شرعت فى إعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيضة (مجموعة من الشجر) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى ، إلا وتفقدتها فى اليوم التالى .. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن ، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لى ! .. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران — وإن لم تكن موحشة — تنقلنى فى الخيال إلى آخر أطراف المعورة .. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن . وما قدر لمرء انقل إلى هناك فجأة ، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ !

وبعد بضعة أيام من الاستسلام للنشوتى الريفية ، فكرت فى تنسيق أوراتى وتنظيم مهامى ، فخصصت فترة الصباح للنسخ — كما اعتدت أن أفعل دائما — وفترة ما بعد الغداء للتريض



وبعد نفاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني ، فخلت انني
ما ازال في شارع (جريفيل) .

والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ،
إذ أنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجيتي إطلاقاً ، إلا
في الهواء الطلق والفضاء ، ولم أجد بنفسى ميلاً إلى أن أغير
أسلوبى ، بل أنني قدرت أن غابة (مونمورنسى) — التى كانت
تكاد تصل إلى بابى — لن تلبث أن تغدو مكتبى ومكان عملى! ..
وكانت لدى عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعددت إلى مراجعتها
.. كنت مبدعاً كل الإبداع فى مشروعاتى ، ولكن تنفيذها كان
يسير ببطء ، فى ضوضاء المدينة . وقد توقعت أن أمضى فيها
بمزيد من العجلة ، إذا ما تخففت من كل ما اعتاد أن يشغلنى
عن العمل .. واعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماماً ..
وبالنسبة لرجل كثير المرض ، كثير التردد على قصر «الاشيفريت»
وأبيناي وأويون وقصر مونمورنسى ، كثير التشاغل عن عمله فى
داره بفضل الفضوليين المتعطلين ، دائم الانشغال بالنسخ
نصف نهاره .. إذا قدر كل هذا ، وأحصيت المؤلفات التى
أنجزتها خلال السنوات الست — التى قضيتها فى ليرميترج
ومونمورنسى — لتجلى ، فيما أوقن ، أنني إذا كنت قد بددت
وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن ، فإن تبديده لم يكن فى خمول ،
على الأقل !

وبين الأعمال الأدبية المتباينة — التى كانت على الرف — كار
المؤلف الذى أطلت التفكير فيه ، والذى أقبلت عليه بأعظم قدر
من الشغف ، والذى وجدت أن أعمل فيه طول عمرى ، والذى
أعتقد أنه ختم شهرتى .. ذلك هو كتابى فى «المذاهب السياسية» .
إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة — أو أربع عشرة — سنة ،

٢٢٤ اعترافات جان جال روسو - الجزء الثالث

مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقيما فى البندقية ، حيث أتاحت لى الفرصة كى أشهد عيوب نظام الحكم فيها ، برغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين ، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الاخلاق ، فقدر لى أن أرى أن كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وأنه ما من شعب يملك — مهما يكن تقدمه — أن يصبح فى حال غير التى تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فإن المسألة الكبرى — مسألة خير نظام ممكن للحكم — انكشفت فى نظرى إلى ما يأتى : ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون أفضل صفات ، وأكثر تنورا ، وأوسع حكمة .. وبالإيجاز ، الشعب الذى يكون « أحسن » شعب ، بأوسع معانى كلمة « أحسن » ؟ .. ولاح لى أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وإن لم يكن مثله تماما . ذلك هو : ما هى الحكومة التى تحرص — بطبيعتها — دائما ، على أن تكون وثيقة القرب من القانون ؟ .. وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة . ورأيت أن هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرعاية الجنس البشرى ، ولا سيما رفاهية وطنى ، حيث لم أجد — خلال الرحلة التى قمت بها إلى هناك — دراية بالقانون وبالحرية صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى . ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية — بطريق غير مباشر — هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شفيع لى كى يغفروا لى أن استطعت أن أمد بصرى إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم !

ومع أنني كنت قد عكفت — لخمس سنوات أو ست — على وضع هذا المؤلف ، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطاً يذكر . فإن الكتب التي من هذا القبيل ، تتطلب تأملاً ، وفراغاً . وطمانينة . فضلاً عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء — كما يقال — دون أن أفتح أحداً — ولا يديروا نفسه — بما اعتزمت . فقد كنت أخشى ألا يبدو ملائها كل الملاءمة لروح العصر ، وللبلد الذي كنت أكتبه فيه ، وأن جزع أصدقائي قد يعرقل جهودي في تنفيذه (١) . ولم أكن بعد واثقاً من أنه سيتم في وقت مناسب ، وبحيث يتسنى ظهوره أبان حياتي . . وكنت راغباً في أن أتمكن دون أي تقيد — من أن أهب موضوعي كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المغرض ، وغير راغب قط في الجنوح إليهما — فأننى كنت مطمئناً إلى أنني سأظل دائماً بمنأى عن اللوم . . لقد وددت أن أستخدم — أكمل استخدام ، دون ريب — حق التفكير ، هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي . . ولكنني في حرصي دائماً على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت حكمة ديكلو المنزلة هي التي أوجت الي بهذا الخوف . أما ديرو ، فلمست أرى كيف كانت اجتماعاتي به تتجه دائماً إلى جملي أكثر مسخية وهجوا واتذاعا مما كنت بطبيعتي . وهذا بالأذات هو الذي زدني من أن أستشير في مشروع كنت راغباً في ألا أستخدم فيه سوى قوة التلق والمصلحة فقط ، دون أنه أثر لتعنت أو تعصب . ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذي انتبجته في هذا المؤلف ، على ضوء استلوبي في « العقد الاجتماعي » الذي أخلته منه » — وقد قدم « كتابي » ملخصاً للعقد الاجتماعي في المديين (٣١) و (٣٢) .

اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

٢٣٦

ظلاله ، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقاً ، وعلى التزام الحفر حتى لا أنتهك حق الغير . . في كل حرصى هذا ، لم أكن رافياً — في الوقت ذاته — في أن أفرط ، بدافع من الخوف ، في امتيازات هذا الحق . . حتى في التفكير ! . بل أننى لأذهب إلى الاعتراف بأننى وجدت وضعى في فرنسا — كاجنبى يعيش فيها — موافقاً لى أقول الحق في جراءة . . فقد أدرك تماماً أننى ما دمت لا أطيع شيئاً في الدولة ، دون ما إذن — وهو ما كنت اعترضه — فلن أكون مسئولاً أمام أى أحد في فرنسا عن مبادئى ، وعن الترويج لها في أى مكان آخر ! . . ولقد كان من المحتمل أن أكون أقل حرية في جنيف ، أو في أى مكان آخر طبعت فيه كتيبى ، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها . . ولقد كان لهذا الاعتبار اثر كبير في حملى على أن أنصاع لإلحاف السيدة ديبيناى ، فهاجر ما كنت قد انتويته من الإقامة في جنيف . . فقد شعرت — كما ذكرت في « اميل » — بأن المرء إذا أراد أن يؤلف كتباً في الصالح الحقيقي لوطنه ، فليس له أن يؤلفها في هذا الوطن ، اللهم إلا أن يكون موهوباً في التأمر والدس والخداع !

ومما زادنى مسعادة ، أننى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعى في سلام ، إن لم تحمنى ، ولو أنها لم تكن تنظر إلى بعين راضية ! . . ولقد كان هذا — فيما بدا لى — نهجاً سياسياً بسيطاً ، وصريحاً إذ أنه يرمى إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه . . فلو أننى حملت على مغادرة فرنسا — وهو ما لكل الحكومات الحق في أن تقدم عليه — لظلت

٢٣٧ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

كتبى ماضية فى الصدور ، ولكن بتحفظ اقل .. اما اذا تركت دون إزعاج ، فانتنى — كمؤلف — سأعتبر رهينة وضمانا لكتبى، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية أوروبا ، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق ورقى تفكير !

والذين يحكمون — على ضوء النتيجة — بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على، كانت كتبى خير حجة فى جانبى ، لولا أن شخصى هو الذى كان مقصودا .. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام ، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرت كتاباتى ، هو التكريم الذى كان من المحتمل أن يولونى إياه . ولكن .. يجب ألا نقفز إلى المستقبل ، ولندعه إلى حينه ! .. ولست أدري ما إذا كان هذا اللغز — فهو لا يزا لغزا فى نظرى إلى اليوم — سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى فيما بعد .

وإنما الذى أدريه هو أنه إذا كانت آرائى التى جاهرته بها، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها ، لما توانيت من التعميل بأن أصبح فريسة لها . ذلك لأن ما ظهر من كتبى — التى بسطت فيها هذه المبادئ بكل جرأة ، إن لم أقل بكل شجاعة(١) — كان قد أحدث أثره ، على ما بدا ، قبل أن آوى إلى (ليرميحاج) ، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزنى الحرب،

(١) يقصد كتابه " حديث فى عدم المساواة فى الظروف والاحوال " .

٢٣٨ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

أو — على الأقل — أن يعوق نشر المؤلف في فرنسا ، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في هولندا . ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » — بعد ذلك — بنفس السهولة ، وب نفس التحبذ ، كما ينبغي أن يقال . ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تصدق ، أن العقيدة التي بشرت بها في « هيلويز » هذه ، كانت عين تلك التي بشرت بها في « أسقف سانفوا » . . . وكل ما تقدمت على قوله في « العقد الاجتماعي » ، كان قد قيل في « حديث في عدم المساواة » . . . وكل ما جاهرته به في « أميل » ، ظهر قبل ذلك في « جولي » . . . ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الأولين (١) ، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي أثارت سخطا ضد الكتاب الأخير (٢) .



وهناك مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته واتنتى متأخرة عن أفكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالي في ذلك الحين . . . ذلك هو « مختارات من أعمال الاب دى سان بيير » ، الذى لم أملك الحديث عنه من قبل ، إذ شغلنى عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إلى بالفكرة الراهب دى مابلى — عقب عودتى من جنيف . . . ولم يعرضها على مباشرة ، وإنما وسط في الأمر السيدة دويان ، التى كانت مهتمة — إلى حد ما — بإقناعى بالاضطلاع بالمشروع . . . فقد كانت إحدى ثلاث أو

(١) يقصد كتابيه : « أميل » و « حديث في عدم المساواة » .

(٢) قصد « العقد الاجتماعي » .

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ٢٣٩

أربع من حسان باريس ، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير » . وإذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فإنها — على الأقل — قد تقاسمته مع السيدة ديجويون . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله ، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليفة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقتها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتيرها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة ، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ أن يحتمل قراءتها . وما كان يبعث على الدهشة ، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « أطفال كبار » ، ولكنه — مع ذلك — كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا . فضلا عن أنه لم يتجشم أى عناء فى حملهم على الاتصاف إليه

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة — فى حد ذاتها — كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، الفى أن المجهود الذى يبذل فى التفكير مرهق ، فكان يؤثر — فيها يوافق هواه — أن ينقح ويحسن افكار سواء ، على أن يبتدع افكارا جديدة من لدنه . . . وإلى جانب ذلك ، فأننى لم أقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، إذ أننى لم أكن ممنوعا من أن أستغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى أن أصوغ عملى بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدق بها إذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . . . فضلا عن كل هذا ،

٢٤٠. اعترافات جان چاك روسو. - الجزء الثالث

فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة .. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة ! .. بل أنني كنت موشكا - في كثير من الأحيان - على أن انفض يدي منها ، لو أنني استطعت أن انسحب في تصرف كريم .. ولكنني عندها تقبلت مخطوطات الراهب - التي أعطانها ابن أخيه الكونت دي « سان بيير » ، بإيعاز من « سانس لامبير » - أصبحت مرتبطا بشكل ما ، بأن استعملها .. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردّها ، وإما أن أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميتاج » ، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغي !

ورحت أفكر - إذ ذاك أيضا - في مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسي ، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه ، أنني وجدت من الأسباب ما جعلني أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقى للجنس البشرى ، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر ، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة ناجحة . فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون - في سياق حياتهم - على غير ما هم عليه أصلا ، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم أكن أبغى بإصدار كتاب في ذلك ، أن أقر شيئا

٢٤١ اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى غرض جديد تمام الجودة ،
ونو أهمية بالغة .. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه
التطورات والتغيرات — التي تطرأ على الناس في حياتهم — وأن
أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا ، وأن أبين
كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا ، لكي نصبح أفضل وأكثر
ثقة بأنفسنا واطمئنانا إليها ! .. ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل
الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها — والتي
ينبغي عليه أن يقاومها — عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو
عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قدر له أن يتعقبها
إلى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه
— في مرة أخرى — يستسلم لأنه ضعيف .. ولو أنه كان على
ما كان عليه من قبل ، لما استسلم .

وفيما كنت أفحص نفسي ، وأبحث في النفوس الأخرى عما
يمكن هذا التباين من الحدوث ، تبينت أنه إنما يعتمد — إلى حد
كبير — على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته — من قبل —
من انطباعات داخلية ، وأنا في تغيرنا المستمر — بفعل حواسنا،
وأجهزتنا البدنية — إنما نكشف ، دون أن ندرك عن أثر ذلك
التغير في أنفسنا ، وفي آرائنا ، وفي مشاعرنا ، وفي أعمالنا
ذاتها ! .. وكانت المشاهدات العديدة والدهشة — التي
جمعتها — تعلو على كل طعن .. وقد بنت لي ، في أصولها
الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير
الظروف ، ويمكن من وضع العقل أو صونه في حال تكون خير
الأحوال ملائمة للفضيلة ! .. فكم من أخطاء يمكن انتقاد العقل

٢٤٢ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

منها ، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها ، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني بحيث يتلاءم مع النظام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضطراب ! .. ان احوال الجو ، والفصول ، والأصوات ، والألوان ، والظلام ، والنور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصمت ، والحركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى .. كلها تمدنا بآلف فرصة ، تكاد تكون مضمونة ، للتحكم — منذ البداية — فى المشاعر التى نتركها تتحكم فينا !

هكذا كانت الفكرة الأصلية ، التى كنت قد سطرتها على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، فى سبيل حبهم الصادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة ، كما هو من حيث الكتابة ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أحرز سوى تقدم ضئيل فى هذا المؤلف — الذى جعلت له عنوانا : « المبادئ الخلقية الحسية ، أو مادية الحكيم » (١) — فقد حالت شواغل ، لن تلبث أن تتكشف ، دون أن أحكك عليه .. ولن يلبث أن يتضح كذلك ، ان هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب إلى نفسى من كل ما يبدو !

اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث ٢٤٣

وكنيت — إلى جانب كل هذا — قد فكرت منذ زمن ، في نظام للتربية كانت السيدة دى شينونسو قد رجتنى أن أشتغل به ، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن انصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواء ، برغم أنه لم يكن — فى حد ذاته — مما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد — بين كل المشروعات — التى ذكرتها من قبل — الذى أنجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عيني — وأنا أعمل فيه — جديرة ، كما يتراءى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى أتاحه . ولكن .. لتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل أن يحين أوانه .. فسوف اضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية . إذ أننى — وأعتقد أننى ذكرت هذا من قبل — لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى ، فما أن أقف ، حتى أكف من التفكير ، فليس فى وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى . على أننى اتخذت الحيلة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت فى الأيام المطيرة . ذلك هو « قاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ، مشتتة بحال تجعل من الضرورى إعادة كتابة السفر كله ، من أوله إلى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين فى السعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى ، التى استعيرت لى من

٢٤٤ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

« مكتبة الملك » ، والتي أبيع لى أن أصحب بعضها معى إلى « ليرميتاج » . هذه كانت المواد التى تهىء لى العمل فى البيت ، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، أو عندما أسأم النسخ والنقل . ولقد وافقنى هذا التدبير إلى درجة أننى واطبت عليه فى « ليرميتاج » وفى قصر « مونبورنسى » على السواء ، ثم فى « موتير » بعد ذلك ، حيث اكملت هذا المؤلف ، بينما كنت ماضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما أن أجد فى تغيير الأعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغة — ولفترة من الزمن — النظام الذى فكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجليل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردد السيدة ديبيناي على ضيعة (ايبيناي) أو ضيعة (لاشيفريت) ، فوجدت من الشواغل — التى لم تكن تكبئنى من قبل شيئا ، ولكنى لم أحسب لها فى تدبيرى حسابا — ما عطل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت — من قبل — إن للسيدة ديبيناي خصالا بالغة اللطف ، إذ كانت تحب أصدقائها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشهامة ، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فإنها كانت تستحق — من جدارة — أن تجازى من ذلك برعاية خاصة . ولقد كنت — حتى ذلك الحين — أؤدى هذا الواجب ، دون أن أفكر فى أنه واجب ، ولكنى لم البث أن فهمت — فى النهاية — أننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطناتها سوى الصداقة وحدها ! . . ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفورى من المجتمعات الحافلة ، إذ تكرمت السيدة ديبيناي فعرضت اقتراحا بدا ملائما

٢٤٥ اعترافات جان جاك روسو - الجزء الثالث

بالنسبة لى ، واكثر ملاءمة بالنسبة لها ، ذلك هو أن تحيطنى
علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، أو على وشك
الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون أن أفطن إلى ما كنت
أقيد به نفسى . وترتب على ذلك أننى لم أهد أودى لها زيارات
فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، وأننى
لم أطمئن يوما إلى أن نهارى رهن رغبتي . ولقد أفسد هذا
القيد — إلى حد كبير — ما كانت توفره لى زيارتي لها — فيها
مضى — من متعة .. وتبينت أن الحرية — التى طالما وعدتني
بها — لم تمنح لى إلا بشرط ألا أحظى بها إطلاقا ! .. ولقد
رغبت — فى مرة أو مرتين — فى أن أجربها ، فإذا بكثير من
الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من إمارات الخوف تنهال
من السيدة ديبيناي معربة عن قلقها على صحتي .. حتى تبين
تماما ألا شفيح لى فى عدم الاسراع إليها لدى أول بادرة
عن رغباتها ، إلا بأن ألزم فرائضى تماما !

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الرقعة ، فأنصعت فى
تساؤل يفوق ما كان ينتظر من عدو لحدود لكل ما يحد من
الحرية .. وقد ساعد الوفاء الصادق — الذى كنت أكنه
للسيدة — على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال
التي كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة ديبيناي
أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ — الذى خلفه غياب الثلة التى كانت
تحيط بها — إلى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بها
من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة،
التي لم تكن تطيقها . على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ

٢٤٦ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب ، ودخلت راسها
نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، وفكاهيات ، وحكايات ،
وما إلى هذه التفاهات ، كيفما اتفق لها! .. على أن الكتابة لم تكن
أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب ..
ماذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا ، كان من الضروري لها أن
تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم
ويحبذونه . ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من
هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم إلا إذا شفع لى مستمع آخر! ..
ذلك لأننى كنت — وحدى — لا أكاد أساوى شيئا يذكر ، لا فى
ندوة السيدة ديبيناي محسب ، وإنما فى ندوة السيد دولباخ ،
وحيثما كان جريم نجما متألعا .. وكان هذا التجاهل التام
لقدرى يلائمنى تمام الملاعبة ، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة
وحيدين ، إذ أننى لم أكن أعرف أى مسلك أتخذ .. ذلك لأننى
لم أكن أجرؤ على الحديث فى الأدب — إذ لم أكن أعتبر كفاء
لإبداء الراى فيه — ولا فى آداب السلوك والمجاملة والإيناس ،
لأننى كنت مغرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك
أمام غانية عجوز ، أكثر من خشيتى الموت! .. فضلا عن أن
هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة
ديبيناي ، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة فى حياتى ،
ولو قدر لى أن أعيش طيلة عمرى بصحبته .. وما كان ذلك
لأننى كنت أضمر نفورا شخصيا منها ، بل لعلى — على
النقيض — كنت أحبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على
أن أحبها كعشيقة! .. كان يروق لى أن أراها وأن أجانبها
الحديث . ومع أن حديثها كان طلبا — إذا ما كانت فى جماعة —

٢٤٧ اعترافات جان إيل دوسو - الجزء الثالث

إلا أنه كان ممضا في الجلسات الخاصة .. أما حديثي أنا ، فلم يكن لبقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير في ايناسها .. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة ، أرهق نفسي في سبيل بعث الحياة في الجلسة . ومع أن هذا كثيرا ما كان يتعبني ، إلا أنه أبدا ما ضايقني ! .. كنت أبدى لها آيات الغزل من طيب خاطر ، وامنحها بعض قبلات أخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لى أنها ذات إثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما في الأمر ! .. فلقد كانت مفرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر مبسوط كراحتي ! .. وكان هذا الميب وحده ، كافيا لأن يطلقى كل حرارة في كيائي ، فما قدر لقلبي ولا لحسى يوما أن يريا أية أنوثة فى امرأة بلا نهدين .. وقد كانت ثمة أسباب أخرى — لا جدوى من ذكرها — تجعلنى أنسى الناحية الجنسية دائما ، إذا ما كنت بالقرب من السيدة دييناي !



أما وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها ، فأننى أسلمت نفسى لها دون ما مقاومة فالفيتها — فى العام الأول ، على الأقل — أقل عبءا مما كنت أتوقع . وكانت من عادة السيدة دييناي أن تقضى الصيف بأسره — تقريبا — فى الريف . ولكنها لم تقضى هناك ، فى هذا العام ، سوى شطر منه .. لى لأن أعمالها كانت تتطلب وجودها فى باريس ، وإيا لأن غياب « جريم » جعل الإقامة فى « لاشفريت » أقل ملاءمة لها عن ذى قبل . ولقد كنت أستغل الفترات التى لم تكن تقضيها هناك ، أو التى كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس ، لأنعم

٢٤٨ اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

بعزلتى مع تيريزى الطيبة وامها ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه
الفترات قدرها . ومع أننى كنت قد اعتدت — لبضع سنوات —
أن أتردد على الريف كثيرا ، إلا أننى لم أكن أستمتع بهذه
الرحلات ، إذ أنها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين
للمظاهر ، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد
والحرج ، وإن كانت قد أنكت فى نفسى الميل إلى المتع الريفية ..
وكننت كلما لمحت هذه المتع من كتب ، ازدادت شعورا بحرمانى
منها . كنت قد سئمت — كل السأم — « صالونات » باريس ،
ونافورات الماء ، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها
أشد بعبثا للبلل .. كنت ضجرا من التطريز ، والمعزف ، وحبك
الصوف ، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف
الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآدب العشاء الكبيرة ،
حتى أصبحت إذا ما لمحت — بنظرة من ركن عينى — شجرة من
أشجار الصنوبر ، أو عشا من الأعشاب الشوكية ، أو سياج
مزرعة ، أو مخزنا للفلال ، أو مرجا .. وحتى أصبحت إذا
ما شممت — وأنا أبر بمزرعة — عير « العجة » المتوبلة
بالأعشاب الشذية .. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد
أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت أتمنى ازاء هذا كله ، أن
يذهب كل الطلاء الأحمر ، والمساحيق ، والعطور ، إلى
الشیطان ! .. وكننت اتحسر على الغداء الذى تعده الزوجة
المتفرغة لبيتها فى الريف ، والنبیذ المحلى .. وكننت أود — من
قلبى — أن أكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقا ، اللذين
كانا يضطرانى إلى أن أتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ،
وأن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها ..

اعترافات جان چاڤ روسو - الجزء الثالث ٢٤٩

وكنت أود - فوق كل شيء - أن أصنع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي أكلها ، ويبيعوني - إذا لم أشتأ أن أموت ظمأ - نبيذ مخدومهم المعتق ، بما يفوق عشرة أمثال ما أنفعه من أجله في أرقى حالة !

ولكن . . ها أنذا أخيرا في داري ، في ماوى منغل مستحب ، حر في أن اقضى أيامي في حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنة ، كنت أشعر أنني إنما خلقت لأتعم بها ! . . وقبل أن أذكر الأثر الذي أحدثه هذا الوضع - الحديد على - في فؤادي ، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى للإمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة .



لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تيريز هو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق . فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق ، مذ انقسم في تسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به . . ان الظلم إلى الهناء لا يمكن أن يرتوى في قلب الإنسان ! . . ولقد كانت « ماما » تسعى إلى الشيخوخة ، وتنحدر إلى البهوان ، وكان من الواضح لى أنها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى ، بما دمت قد عقدت كل أمل في أن أقاسمها سعادتها ! . . رحت أطفو من فكرة إلى فكرة ، ومن خطة إلى خطة ، بعض الوقت . وكانت رحلتى إلى (البنديقية) خليقة بان تزج بى في الشئون العامة ، لو أن الرجل الذى قدر لى أن أرتبط به ، كان على شيء من الإدراك السليم . وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم ،

لا سيما في المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرنى من أمثاله . ولما كنت — وفقا لمبدئى القديم— أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحاييل للحمى ، فقد وطنت العزم على أن أعيش — بعد ذلك — دون أية خطة مرسومة ، إذ أننى لم أعد أرى شيئا فى الحياة كان قادرا على أن يغرينى على أن اتعب نفسى !

وفى هذه الفترة بالذات ، بدأ تعارفنا ، فلاح لى أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى أننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها ، ولم يؤد أى شئ — كان يحتمل أن يفصمها — إلا إلى توثيقها . ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلى ، عندما أكتشف عن الجراح والآلام التى خلفتها فى قلبى — فى أوج تعاستى — دون أن تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور !

وعندما يعرف إننى — بعد أن فعلت كل شئ ، وبعد أن جابهت كل عناء لاتفادى فراقها ، وبعد أن عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر — أقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون أن يكون لديها أى توقع أو أى رجاء ، ودون أن أرتبط معها بخطوبة أو بوعد .. عندما يعترف هذا ، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامح ، الذى عبث برأسى منذ اليوم الأول ، قد قادنى تدريجا إلى آخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، إذا ما هراق الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليقة بأن تمنعنى من

اعترافات جان چانه روسو - الجزء الثالث ٢٥١

أن أقدم على شيء كهذا .. فماذا يظن إذن ، إذا أنا أعلنت
- بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه في خلقى من صدق - أنني منذ
اللحظة الأولى التي رأيته فيها ، حتى يومنا هذا ، لم أشعر
نحوها بأضال قبس من الحب ، وأننى لم أعد أكثر اشتها
لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وأن الرغبات
الحسية التي كنت أشبعها لديها ، لم تكن - في نظرى - سوى
استجابة للنوازع الجنسية ، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد؟
.. لقد يمتد القارىء أننى إذ أوتيت بنية تختلف عن بنية
سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن أن أشعر بالحب ، لا سيما
وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التي ربطتنى بتلك المراتين اللتين
كأنتا أعز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة
المشؤمة تقترب ، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال !



إننى أكرر حديثى ، وأنى لأدرك ذلك ، ولكنه أمر لا بد منه .
لقد كانت أولى ، وأعظم ، وأقوى ، وأعتى حاجاتى جميعا ،
تتصمر بأكملها فى غوآدى .. تلك هى الحاجة إلى زمالة أشد
ما تكون لغة وقربى وتوثقا .. ومن أجل هذا الغرض - بوجه
خاص - كنت محتاجا إلى امرأة أكثر منى إلى رجل .. إلى
صديقة ، أكثر منى إلى صديق . وكانت هذه الحاجة من التفرد
بحيث أن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها .
كنت أتوق إلى روحين فى جسد واحد وقد ظللت - بدون ذلك
- أشعر بالفراغ دائما !

٢٥٢ اعترافات جان چالد روسو - الجزء الثالث

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فإن هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة — بفضل الف من الصفات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من أى افتعال أو إغواء — بأن تستوعب كل كيائى فى كيائها ، لو أئنى استطعت أن استوعب كيائها فى كيائى ، كما كنت آمل !

ولم يكن لدى ما أخشاه من ناحية الرجال — فقد كنت موقنا من أئنى الرجل الوحيد الذى أحبته تيريز حبا صادقا — وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى ، حتى عندما كنت عن أن أكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى أسرة ، فى حين أنها كانت ذات أسرة ، ولم تكن هذه الأسرة — التى كان أفرادها جميعا من صنف يخالف فى الخلق صنفها — بالتى أستطيع أن اعتبرها كأسرتى .. وكان هذا أول أسباب شقائى ! .. ما الذى كنت أتردد فى أن أجود به ، لكى أضع نفسى من أمها موضع الابن ؟ .. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة ، دون أن أوفق إطلاقا ! .. كان من العيب أن أحاول أن أوجد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلا .. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد أصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانا ظالمئة إلى الدماء ، وكان

٢٥٣. اعترافات جان چاله روسو - الجزء الثالث

أبسط ضرر الحقوق بتبريز ، هو أنهم راحوا يسرقونها .
 إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع — حتى لبنات
 أخواتها — فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون أن تنبس ببنت
 شفة . . ولقد ألتنى أن أرى أنه لم يكن بوسعى أن أفعل شيئا
 لمساعدتها ، برغم أننى كنت أعتصر مواردى ونصائى فى هذا
 السبيل ! . . ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها ، ولكنها كانت
 تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا
 لها ، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها
 مصالحى . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية أسرتها ،
 ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لى ، بل وأكثر
 مما كانت ملكا لنفسها !



((كتابي))

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|-------------------------------|--------------------------|
| ٢٥ - الحرب والسلام ج ٤ . | ١ - وجوه الحب السبعة . |
| ٢٦ - تعلم كيف تسترخي . | ٢ - الحبيب الأول . |
| ٢٧ - مركب النقص . | ٣ - جريمة حب . |
| ٢٨ - غرام سوان ج ١ . | ٤ - أنا كارتيينا . |
| ٢٩ - غرام سوان ج ٢ . | ٥ - الحرب والسلام ج ١ . |
| ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة . | ٦ - الحرب والسلام ج ٢ . |
| ٣١ - كيف تحصل على الثروة . | ٧ - الخاطنة . |
| ٣٢ - غرام سوان ج ٢ . | ٨ - اليوسساء ج ١ . |
| ٣٣ - لماذا أنت عصبي . | ٩ - مدام بوفاري ج ١ . |
| ٣٤ - عش بحكمة تعيش سليما . | ١٠ - مدام بوفاري ج ٢ . |
| ٣٥ - زواج الحبيب . | ١١ - اليوسساء ج ٢ . |
| ٣٦ - التحليل النفسي للأحلام . | ١٢ - الخبيثة الاولى . |
| ٣٧ - حذار من الشبهة . | ١٣ - الفتون . |
| ٣٨ - امير الانتقام . | ١٤ - الحب هو الكنز . |
| ٣٩ - اعترافات جان روسو ج ١ . | ١٥ - فن العيش . |
| ٤٠ - اعترافات جان روسو ج ٢ . | ١٦ - د. زيفاجو ج ١ . |
| ٤١ - اعترافات جان روسو ج ٣ . | ١٧ - د. زيفاجو ج ٢ . |
| تحت الطبع : | ١٨ - د. زيفاجو ج ٣ . |
| ٤٢ - اعترافات جان روسو ج ٤ . | ١٩ - د. زيفاجو ج ٤ . |
| ٤٣ - اعترافات جان روسو ج ٥ . | ٢٠ - اليوسساء ج ٣ . |
| ٤٤ - مرتفعات وينرنج ج ١ . | ٢١ - الحرب والسلام ج ٣ . |
| ٤٥ - مرتفعات وينرنج ج ٢ . | ٢٢ - محاكمة سقراط . |
| ٤٦ - مرتفعات وينرنج ج ٣ . | ٢٣ - الجريمة لا تفيد . |
| ٤٧ - قلوب ضالة . | ٢٤ - نساء ومآسي في ساحة |
| ٤٨ - أوديب . | العدالة . |

٢٥٥

اعترافات جان چاك روسو - الجزء الثالث

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| ٦٢ - نينو تشيكا ج ٢ . | ٤٩ - عاشقات في الخريف . |
| ٦٣ - ماريا ايفانوفنا . | ٥٠ - اسرار الجاسوسية . |
| ٦٤ - الخمسة اللون . | ٥١ - الابن الضال . |
| ٦٥ - البعثة . | ٥٢ - ارواح هالمة . |
| ٦٦ - الائمة ج ١ . | ٥٣ - الثمار للوطن . |
| ٦٧ - الائمة ج ٢ . | ٥٤ - السبعة ج ١ . |
| ٦٨ - الائمة ج ٣ . | ٥٥ - السبعة ج ٢ . |
| ٦٩ - القلم ج ١ . | ٥٦ - بئر سبع ج ١ . |
| ٧٠ - القلم ج ٢ . | ٥٧ - بئر سبع ج ٢ . |
| ٧١ - القلم ج ٣ . | ٥٨ - جين ايسر ج ١ . |
| ٧٢ - بوشكين . | ٥٩ - جين ايسر ج ٢ . |
| ٧٣ - ذات الرداء الابيض . | ٦٠ - جين ايسر ج ٣ . |
| | ٦١ - نينو تشيكا ج ١ . |

اقرأ في الجزء الرابع

تحليل «روسو» لعلاقاته بـتيريز ، وحبه لـدام دوديتو ،
والمؤامرات التي تعرض لها ، والصراع الذي دار بينه
وبين أصدقائه الحاقدين وأعدائه اللداء ، وغضب
الحكومات عليه ، وهجره للأدب .

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
الترقيم الدولي : ٦ - ٨٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبي الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«واعترافات چان چاك روسو من الكتب التى كان يجب أن نترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ..»

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقي» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدياء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل ..»

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابي) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري «چان چاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حامى مراد

